الهام منصور

صوت الناي

أو

سيرة مكان

-1-

حين تلاشى أمامها ورأته يتحوّل الى جثَّة، إلى كتلة ماديّة لا يحددّها سوى السَّماكة، أدركت انه انتهى، انتهى تماماً. نظرت اليه، ابتسمت وغمرتها رعشة جزلى، اذ شعرت انها تولد من جديد، تولد من ذاتها، هي التي لا تعرف شيئاً عن ولادتها الاولى. ابتسمت، فرحت، ولكن ما لبتث ان اضطربت، ماذا ستفعل بهذا المخلوق الجديد الذي ولد من ذاته؟ أين ستذهب به كي لا يطارده أحد، كي لا ينهشه أحد، كي يعيش بذاته ولذاته؟ فكّرت وكرّ في رأسها مسلسل كل حياتها السابقة. ثابرت على التفكير إلى أن ارتطمت بباب مقفل. طرقته، طرقتهُ، ظلّ مقفلاً: "إنّه، حتماً، باب ذاكرتي المنسيَّة" قالت لنفسها. لكن رؤية الباب هذا، في ذهنها، أوحت اليها بقرار جديد: سأرحل الى حيث لا يعرفني أحد، هكذا اضع الذين يعرفونني الآن أمام باب مغلق، وأدخل، رويداً رويداً، في نسيانهم، أحقِّق ولادتي الجديدة وأعيش بين أناس لا يستطيعون أختراق هذا الباب الذي سأوصده ورائي.

قرَّرت ونفَّذت. حملت بانها العليل، مدَّدته على المقعد الخلفي في سيارتها، ثبَّتت انبوب المصل في سقف السيارة، عيَّرته جيداً وصلته بالحقنة المغروزة في زند ابنها منذ شهر تقريباً ورحلت، لا تحمل معها سوى ابنها وذلك الناي الذي رافقها طول حياتها، من دون ان تعرف من أين أتاها، لكنّها، طول حياتها أيضاً، كانت متمسِّكة به تنقله معها حيثما وجَّهتها الأيام.

كان الناي لغزاً بالنِّسبة إليها، حيث وضعته إلى جانبها في السيارة، حدَّقت فيه طويلاً قبل أن تنطلق، وهي تقول "ربما كان مفتاح ذلك الباب المقفل على ذاكرتي المنسيَّة". هكذا فعل مهجَّرو لبنان، وكانوا يحملون معهم في ترحالهم القسريّ مفاتيح أبواب بيوتهم، دليل ملكيتهم. لكنَّ الأبواب كلّها تكسَّرت واحترقت، وما صمد منها، نهب واقتلع من مكانه. بقيت المفاتيح لأبواب غير موجودة، لأبواب حطَّمتها لعبة سادية وأحرقتها النَّوايا الحسنة.

وضعت الناي إلى جانبها ورحلت تبحث عن مكان يكون هو المكان. طافت في القرى وتوغَّلت في الوديان والجبال، إلى أن رأت، من بعيد، قريةً حدوديةً قابعة في سفح جبل. تابَعت مسيرتها على الطرَّيق العام تبحث عن مدخل لهذه القرية. وجدته، فسلكت تلك الطريق الضيِّقة التي، حتماً، ستوصلها إلى حيث تريد. دخلتها وإذ بها تدخل في حلم. شعرت أن الباب الموصد قد انشقَّ وانبعث في داخلها ذاكرة دغشاء. تعرَّفت إلى بعض عناصر هذا الفضاء الذي ولجته، صورٌ، ما كانت تلتقطها حتى تتبخَّر، صورٌ تعرفها ولا تعرفها. "هل صحيح ما كنت

أسمعه أحياناً عن تناسخ الارواح؟ هل رأيت ما أراه الآن في ح ياة سابقة؟" كانت تسأل نفسها وهي تعبر الدرب إلى القرية "تلك الجدران الحجريَّة وذلك العلَّيق الكثيف الذي يسيَّج البساتين وذلك البيت التعيق و ..." تضاربت الصور والافكار في رأسها. "ربَّما كانت ..." توقفت قرب دكّان في ساحة القرية وسألت عن اسمها. "تلَّة العليَّق" أتاها الجواب. فجزمت أمرها وقالت: "ستأخذ من هذه القرية مقراً. يبدو أن بينها وبيني إلفة لا أعرف لها تفسيراً. وما نفع التفسير والفهم؟ أنا آتية إليها لأنسى وأنسى، هذا كلّ ما أريد، وبخاصّة أن اشفي فادي، مطلّي على المستقبل وعلى الحياة".

-2-

دخلا عليهنَّ في تلك القاعة الكبيرة. وحين توقّف نظرهما عليها، ودنا منها السيد وجيه ورفع وجهها نحوه، براحة يده، وسألها عن اسمها، ثم نظر إلى زوجته السيّدة عفاف، وهزَّت، هذه برأسها إيجاباً، أدركت "حلم" أن دورها قد أتى لترحل عن ذلك الميتم الذي أمضت فيه سنين طويلة.

رافقتها المديرة الفرنسية إلى مكان نومها حيث كان الحلم حيّز صغير تضع فيه أغراضها، وقالت لها: "لا تأخذي شيئاً معك، السيد وجيه رجل ثري جداً، وستؤمن لك زوجته كلَّ ما تحتاجين إليه". توقّفت حلم عن جمع ثيابها القليلة، مدَّت يدها إلى آخر الدرج، سحبت النّاي العتيق ونظرت إلى المديرة. "انه لك، خذيه". أجابتها، "وهذه أيضاً لك، إنها تذكرة هوّيتك". وضعتهما حلم في كيس بلاستيكي وعادت مع المديرة إلى قاعة الاستقبال حيث كان السيّد وجيه وزوجته ينتظرانها. نضهت السيّدة من مكانها وقالت "هيّا بنا، لقد تأخرنا".

سيارة ضخمة، كانت تنتظر في الساحة. ترجَّل منها شاب وفتح الباب الخلفيّ، فدخلت السيدة، ثم ركض وفتح الباب المقابل، فدخل السيد، ثم فتح الباب الأمامي وقال لها بإستهتار: "ادخلي". جلست بالقرب من السائق ووضعت الكيس أمامها مستغربة كلَّ ما يحدث: "كيف أجلس في المقعد الأماميّ وهما في الخلف؟ حين كنا نذهب مع أولاد الميتم في نزهة، كانت المديرة تجلس إلى جانب السَّائق في تلك البوسطة، ونجلس نحن على المقاعد الخلفيَّة، فما هذا الانقلاب؟" قالت لنفسها، ثم تقوقعت على ذاتها، لا تجسر على الحراك ولا على الكلام، حتى توقَّفت السيَّارة أمام منزل كبير داخل حديقة رائعة.

من جديد، هبَّ الشَّاب من مكانه، بعد أن أوقف محرِّك السيارة وفتح الباب للسيدة ثم للسيد، ثم أدخل راسه من شبَّاك السيارة وقال لها: "هيّا انزلي، ماذا تنتظرين؟" "ما كنت أنتظر شيئاً لكنّي كنت أجهل كيف يُفتح الباب". وحين أدرك الشاب تلبكي، ضحك وقال: "ارفعي هذه المسكة" وهو يشير بيده إلى مكان في الباب. "رفعتها وإذ بالباب ينفتح. حملت كيسي وترجَّلت من السيارة. كان السيد وزوجته قد أصبحا في الدّاخل. رافقني السَّائق وقطعنا ممراً طويلاً مدهش الجمال والإتقان، يطلّ على حديقة وارفة الأشجار، تجعّ بالأزهار من كل الألوان وفي منتصفها بركة مالء زرقاء كأنَّها تعكس كلَّ صفاء السماء. كنت في تلك اللحَّظة كمن يعيش حملاً ورأيت نفس أتفحَّص جسدي لاتأكد من أنني في اليقظة، وأن ما أراه هو حقيقة وليس خيالاً. ومن أين يمكن أن تأتيني تلك الرؤية أنا التي لم تر في حياتها مثل هذه الاشياء ومثل هذا الجمال. إنها حقيقة فاقت كل تمنيّاتي وخيالاتي وتصوّراتي، حيقية تشبه اللاحقيقة! واقع يشبه اللاواقع!" وأخرجها السائق من دهشتها حين سمعته يقول: "هذه غرفتك". كانت الغرفة في إحدى المباني الصغيرة التي تحيط بالقصر الكبير، مبانٍ منتشرة كجزر صغيرة في تلك الحديقة الواسعة.

دخلتْ غرفتها، وأوَّل عمل قامت به هو سحب تذكرة هويّتها من ذلك الكيس الذي اعتبرت أنه يحمل كل تاريخها؛ وجدت فيها إسم الأب.... وإسم الأم.. وإسمها ومكان ولادتها... "هل كلّ هذه المعلومات صحيحة؟ تساءلت حلم، أم أنها مجرّد هويّة وهميّة اختلقتها المديرة كي تعطيني وجوداً مدنياً معيّناً؟ لا! لقد قالت لي إنها فعلاً تذكرتي وقد أتى بها الرجل الذي أوصلني إلى الميتم. من أوصلني؟ ولماذا؟ ألم يكن لي جَدٌّ أو جدَّة أو خالة أو ... في الأرجح انّي لقيطة وجدوها على باب الميتم حيث كنّا نعثر على الأطفال المرميّة وهي لا تتجاوز الأيام من عمرها. كنّا نستفيق أحياناً على صراخهم؛ ننهض من أسرّتنا وتدبُّ الفوضى في الميتم، نتراكض ونرى إحدى المسؤولات تحملها وتدخل بها وهي تردِّد: "أولاد الكلب، أولاد الكلب!" وهي طبعاً كانت تعني من رماها. هل أنا أيضاً بنت كلب رماني ليتخلّص من فضيحته؟".

طُرق الباب ودخلت السيّدة عفاف. جميلة جداً كانت. وأكثر ما استرعى إنتباه حلم في تلك اللحظة هو أصابع السيدة التي كانت بيضاء، ملساء كالمرمر، تنتهي بتلك الاظافر الطويلة المصقولة، المطليّة بالأحمر اللمّاع. "هذه الثياب لك يا حلم. خذيها ورتبيّها لاحقاً في خزانتك، أما الآن فادخلي الحمام، اغتسلي وارتدي ثيابك الجديدة النظيفة". "هل كانت تظن أنّي غير نظيفة؟" لم تقل حلم شيئاً، استلمت ثيابها ومشت وراء السيدة عفاف التي فتحت باباً بالقرب من غرفة حلم وقالت: هذا حمَّامك، لا يدخله أحد سواك فحافظي على نظافته". أيضاً النظافة!

دخلت حلم ودخلت معها السيدة عفاف لتعرّفها على آلية تشغيل الماء في ذلك الحمّام المهفهف الذي لم تر مثله حلم من قبل وحيث وقفت لا تدري ماذا تفعل. "الآن اغتسلي" قالت السيدة وهي تخرج، غالقة الباب وراءها. "لا تقفلي من الدّاخل" سمعتها حلم، تقول وهي من الخارج. امتثلت حلم لأوامر الست، كما أصبحت تناديها لاحقاً، خلعت ثيابها وقفزت إلى المغطس حيث شعرت انها المرة الأولى في حياتها التي تنعم فيها بمثل هذا التَّرف. فتحت حنفيّة الماء السّاخن وعدّلته بالماء البارد حتى أصبحت تلك المياه تهبط على جسدها العاري شلالاً عذباً ومنعشاً.

فُتح الباب فجأة ودخلت السيّدة من جديد. "سأراقب حمّامك، هذه المرة، لأتأكد من نظافتك". استاءت حلم من تكرار هذه الكلمة وحاولت أن تجيب السيدة عفاف إنها تعرف معنى النظافة، لكنَّها ارتبكت وصمتت. ثم نسيت استياءها وسيطر عليها التلبُّك، فأدارت ظهرها للسيدة كي تستر أماكن معيَّنة في جسدها وأذعنت للأمر الواقع، وباشرت بتليين بدنها هي التي كانت ترغب في أن تلهو أكثر تحت ذلك الشلاّل الدافئ. وسمعت: أعطيني اللّيفة سأساعدك بفرك ظهرك". دنت منها السيّدة، أخذت اللّيفة من يدها وباشرت بتمريرها على ظهرها. وبعد أن أعادتها إلى حلم، خلعت "روبها"، ورمته على الارض وهي تقول: "الجو حارٌّ جداً". وبعد أن راقبت حلم جيداً خلعت ثيابها وحلم لا تدري ماذا يحدث إذ أنها صدمت حين رأت رجل السيدة عفاف تدخل المغطس. تجمّدت حلم للحظة وارتعش جسدها الذي تذكَّر "جوزيت" المشرفة على نومهن في الميتم؛ ينام الجميع وتندسُّ جوزيت في سرير حلم قائلة لها: "أنت أجمل فتاة في الميتم، أنت أعقلهنّ وأطوعهنّ، سأنام معك الليلة وتطوَّق حلم بذراعيها. وتغلُّ حلم في صدرها، ذلك الصدر الذي كانت تتحسّه وكأنه صدر أمها التي لا تعرفها. وبعد فترة أخذت جوزيت تدلّك بحنان جسد حلم، وتمرّر راحة يدها اليمنى على كلِّ أنحاء جسدها وحلم تشعر بالسعادة، إلى تلك الليلة التي تجمَّدت فيها يد جوزيت على أسفل بطن حلم وأخذت ت حرّك أصابعها بطريقة ناعمة أولاً ثم بسرعة، إلى أن أحسَّت حلم بالرَّعشة الجنسيّة الأولى. كان ذلك بعد فترة بلوغها بقليل، استفاق جسدها دفعة واحدة وهو يلاصق جسد جوزيت في السرير. وهي تذكر الآن انها خرجت من تلك الارتعاشة مبلّلة بالعرق وكذلك كان حال جوزيت، التي، كانت، بيدها اليسرى تداعب جسدها هي كما كانت تفعل بيدها اليمنى على جسد حلم. بعدها كانت جوزيت تتلاشى وتعطُّ في نوم عميق، لتستفيق باكراً، قبل الجميع وتعود إلى غرفتها.

"سأستحمُّ معك" سمعتها تقول. انسحبت حلم إلى طرف المغطس لتخلي لها المكان وتجمّدت، وجهها نحو الحائط، وأصبحت السيدة عفاف تحت الدوش، أقفلت بلّوعة المغطس، دلقت فيه سائلاً أزرق، ففاحت رائحة جمية وبدأت المياه ترتفع، تعلوها رغوة بيضاء نفنافة. جلست السيدة وطلبت من حلم أن تفعل مثلها. "ما هذه الطقوس". قالت حلم لنفسها ولكنها أطاعت وحاولت أن تأخذ أقل مساحة ممكنة في المغطس، فما كان من السيدة عفاف إلا أن جذبتها إليها، رفعت شعرها المبلّل عن وجهها وعانقتها، قبّلتها على ثغرها وأخذت تطلب منها أن تقوم ببعض السلوكات التي ما كان لحلم أن تحلم بها. إنتشت السيدة، كما جوزيت سابقاً لكنها نهضت، لفّت جسدها بمنشفة كبيرة وخرجت، تاركة حلم لضياعها. تذكر الآن حلم أنها لم تنم، تلك الليلة، وهي تخطِّط للهرب الذي لم تجرؤ على تنفيذه والذي تلاشت فكرتهُ، في رأسها، مع مرور الأيام.

-3-

"هل يوجد بيوت للايجار في هذه القرية؟" سألت حلم أحدهم في تلك الساحة حيث كان رهط من الرجال أمام دكاكينهم يتفيؤون من حرارة الشمس. "لا أظن، هنا كلّ واحد منا يسكن بيته" أجابها وهو يحدِّق داخل السيَّارة. وتابع: "الاصطياف انتهى من زمان في ضيعتنا".

-" قيل لي أن مناخ ضيعتكم ناشف ومفيق لابني المريض، ولهذا السبب قصدتكم، لا للاصطياف". قالت حلم.

نظر الرجل إلى المقعد الخلفي، رأى الطفل نائماً. وحين وقع نظره على كيس المصل المعلّق في سقف السيارة، دبَّت النخوة في صدره. أهل القرى طيّبون! وقال لها: "دعيني أسأل؛ لي قريب، عمَّر له أهله شقَّة صغيرة، ولكنَّه سافر الآن لإتمام دراسته... ربَّما أجَّرك أهله، البيت لمدّة الصيف... سأسألهم، لكنَّ بيتهم بعيد...

-أصعد إذاً~.

فتح باب السيَّارة وجلس إلى جانب حلم يوجهّها في زواريب تلك القرية إلى أن أطلَّ عليهما، في طرف الضيعة، مبنى من طابقين، يشكّل نشازاً بين البيوت الأخرى: بيت من الاسمنت بين بيوت من الطّين.

-هذا هو البيت، قال الشاب وهو يشير بيدهِ إلى الطابق العلوي. انتظريني هنا سأعرض الأمر على أصحابه، إنّهم أقربائي، وهم يقيمون في الطّابق السّفلي.

دخل البيت، وبعد فترة قصيرة، خرج ومعه سيدة عجوز ورجل كهل. أشار بيده إلى السيارة فقالت العجوز:

-تفضّلي يا أختي.

ترجَّلت حلم من سيارتها وأسرعت إليهما لأن مشيتهما كانت متعثِّرة وهما يتوجهّان نحوها. سلَّمت عليهما ونظرت إلى الرجل الذي رافقها، فقال: "إن شاء الله خير". فبادر الكهل إلى القول: نيَّتك حسنة يا بنتي، لقد سافر إبني، البارحة، ولن يعود قبل سنة... نحن لسنا بحاجة إلى الشِّقة الجديدة. إنَّها مفروشة على قد الحال... تفضّلي إلقي عليها نظرة أولاً".

صعدت حلم السُّلم وراء الرَّجل الذي رافقها وظلَّ العجوزان أمام بيتهما. دخلت الشقة وتظاهرت بأنّها تتبيَّن وتتفحَّص أوضاعها هي التي كانت مصمِّمة أن تسكنها مهما كانت حالتها. "إنَّها جيِّدة، قالت، هل سألتهما عن قيمة الايجار؟" " لا، أجابها ستبحثين الأمر معهما".

-إدفعي ما تريدين يا بنتي، قدّري أنت كم تستأهل هذه الشقة إنّها جميلة أليس كذلك؟" قال العجوز.

لم تكن حلم تعرف هذه المساومات، فتوجّهت إلى الرّجل الآخر وقالت: "سأترك للسيد... فأجابها "حنَّا"، أن يقدِّر هو القيمة، فهو، طبعاً، أدرى منّي بمثل هذه الامور".

انفرد حنّا بالعجوزين للحظة قصيرة، بعدها توجّه إلى حلم وكلّمها بصوت منخفض وعرض عليها القيمة المطلوبة. وهو يعتقد أنّها قيمة كبيرة، فوافقت من دون تردّد وحاولت أن تسرع بالدفع كي لا يغيّروا رأيهم.

-"لماذا العجلة يا بنتي، قال العجوز، اسكني أولاً واهتمي بطفلك... لا حقين على القبض... فيك البركة... هيأتك بنت حلال يا ست أم... ؟" فسارعت حلم إلى الجواب: "أم فادي". وهو الاسم الذي عرفت به لاحقاً في تلك القرية.

-"النِّعم، وأنا بو فارس". ثم توجَّه إلى حنّا وطلب منه مساعدتها.

حمل حنّا الطفل فادي وصعدت حلم وراءهما. وحين ألقى بفادي على سرير حديدي في غرف النوم التي كانت تحتوي سريرين، توجهّت إليه حلم شاكرة

معروفه، ثم فتحت حقيبتها، أخرجت منها مبلغاً من المال وقدّمته له، فتلبَّك ورفض بإصرار. "كان، طبعاً سيرفض لو فعلت ذلك أمام أقاربه لكنَّه لماذا يرفض الآن؟" ارتبكت حلم وخجلت من نفسها، لكنّه تمنّى لها إقامة طيّبة والشّفاء لابنها وانصرف.

"كم أهل هذه الضيعة طيّبون وبسطاء. لم يطلبوا منّي أية ورقة ثبوتية، حتى أنهم لم يكتبوا ورقة ايجار! ماذا لو أتاهم يوماً لصٌّ أو قاتل أو ... فهل سيستقبلونه من دون التعرُّف إلى هويّته؟ لكنّي إمرأة ومعي طفلٌ مريض... وضعي لا يخيف أحداً". قالت ذلك لنفسها وهي ترتب وضع ابنها في السّرير.

-4-

جلست حلم على الشرفة تنظر إلى القرية، إلى "تلّة العلّيق". إنّها مزيج من الجديد والقديم. بيوت رماديّة جديدة منتشرة كالجزر النافرة بين بيوت عتيقة تشكّل المساحة. تثبَّت نظرها على سطح أحد البيوت وغابت الضيعة عن عيونها. سمعت صوته وهي في المطبخ تحضّر القهوة له ولزوجته. استدارت وقالت له: "تفضّل سيّدي" وأجابها: "سأشرب القهوة بسرعة لأنني مستعجل، لقد تأخرت... خذي القهوة والترويقة للسِّت في غرفتها".

حملت حلم صينيّة القهوة مع بعض الاجبان والزبدة والعسل وطرقت بابها. "ادخلي". كانت الست عفاف لا زالت مستلقية على ذلك السرير العريض في تلك الغرفة التي تكسو جدرانها ستائر من المخمل السماوي. وقفت حلم في الباب دَهشةً، أدهشها هذا الفردوس الأزرق. جلست الست عفاف في سريرها وقالت: "ضعي الصينيّة على الطاولة، ستبدئين بتدليكي أولاً، كي أتنشّط ويجري الدم في عروقي جيداً". كانت حلم تنظر إلى الأرض لأنها ما نسيت ليلة البارحة في الحمَّام. نفّذت ما طلبته، الست، منها، واقتربت من السرير وهي تعتذر عن جهلها في التدليك. "ستتعلَّمين، الأمر بسيط"، أجابتها الست عفاف. ثم نهضت من سريرها، خلعت قميصها الشفّاف، وضعت المنشفة على السرير وتمدَّدت، عارية فوقها، ظهرها إلى فوق وقالت: "إبدأي من أسفل الرجلين صعوداً إلى أعلى الظهر". ثم مدّت يدها إلى الكومودينا، قرب السرير، أخرجت من درجها زجاجة صغيرة، وتابعت: "ضعي هذا الزيت أولاً". فتحت حلم الزجاجة صبّت منها كميّة من الزيت على كفِّها وراحت تمرّغُها على ساقي وظهر الست عفاف التي كانت تردِّد: "إضغطي أكثر... إضغطي أكثر وتابعي من الأسفل إلى الأعلى..." وحين استلقت على ظهرها وانفلق ثدياها، كلٌّ واحد إلى جهة، وشكّلت تلك المنطقة

المكسوّة بالوبر الاسود الكثيف مركز جسدها، أشاحت حلم بنظرها عنها وارتبكت فعلاً. لماذا العري يسبّب الاضطراب؟ وسمعتها تقول لها: "الآن من جديد". فامتثلت حلم لأمرها وباشرت عملها. وحين انتهت من الساقين قالت لها الست عفاف: "إنك لا تستحكمين جيّداً، إصعدي إلى السرير، إركعي وضعي جسمي بين فخذيك وتابعي". خلعت حلم حذاءها ونفذّت ما طلب منها متابعة التدليك من الاسفل نحو الأعلى. ولما وصلت إلى الثديين سمعتها تقول:"الآن إضغطي". فعلت حلم وكبرت الحملتان وصلبتا، وأغربت الست عينيها، مدّت يديها إلى حلم فوقها وأخذت تدفشها نحو الأسفل حتى أصبحت يدا حلم على ثدييها ووجهها بين فخذيها، أمسكت رأس حلم وأخذت تشدُّ عليه وهي تقوم بحركات تخضُّ كل جسدها قبل أن تتنهَّد وترتخي.

خرجت حلم من شرودها وقالت لنفسها: "تمدَّدتُ فوق السّت عفاف لا انقياداً لأوامرها فقط، بل لأنني كنت فعلاً مهتاجة بعد أن دلّكت جسدها الناعم وداعبت ثدييها واستمتعت بلمسات يديها اللتين عبثتا بكل أنحاء جسدي".

-5-

بكت جوزيت حين رأت حلم تغادر الميتم مع أسيادها الجدد. كانت تأمل ألا يختارها أحد وكانت تقول لها كلّما زار الميتم سيّدة وأخذت معها، بعد الزيارة، إحدى الفتيات:" هل تريدين حقّاً الذهاب وهل تعرفين ماذا ينتظرك في الخارج؟" كانت حلم تعتبر الميتم سجناً تريد الانعتاق منه بأي ثمن. لكنَّ السيدات الزائرات كنَّ يخترن تباعاً أقبح البنات شكلاً وتفسرّ لها جوزبت الأمر بأن المرأة، إجمالاً، لا تختار صبيّة جميلة لتعمل معها في البيت، فهي تخاف إن اختارتها جميلة أن يعشقها زوجها و"إن لم تخترك حتى الآن إحداهنّ فلأنك جميلة جداً". تعانقها وتبيت في الليل معها في السرير وتتابع كلامها:"إن بقيت هنا ستصبحين مساعدتنا وتشرفين على الايتام مثلنا، ألم تلاحظي أننا لم نعُد نعاملك كالاخريات الأصغر منك سناً؟ لقد بدأنا نوجّهك إلى دور المساعدة". وتخرج حلم من ارتعاشة جسدها لتعود إلى الواقع وتتساءل:"هل سأقضي حياتي داخل جدران هذا السجن وبين ذراعي جوزيت؟".

وحين اختارها السيد وجيه وزوجته كانت فرحتها كبيرة إلى درجة أعمتها عن رؤية جوزيت التي ظلّت واقفة وراء النافذة تنظر إلى السيارة تبتعد، وهي تلملم دموعها. لكنّ المديرة واستها، يومها، وأظهرت دهشتها أمام بكائها الذي لم تجد له تفسيراً سوى أنه دليل على رقة قلب جوزيت وعلى حنانها وتعلّقها بالايتام.

"أفهمك يا جوزيت، قالت لها، وأفهم تأثرك، لقد عاشت معنا حلم أكثر من غيرها وكادت أن تصبح أختاً لنا". لم تجب جوزيت، كانت الغيرة، من تلك السيّدة عفاف، تنهش جسدها، لست أدري بأيّة حاسّة خفية تكتشف المرأة السحاقيّة غريمتها.

-6-

مالت الشّمس إلى الغروب وتبرَّد الجوّ قليلاً، دخلت حلم إلى غرفة ابنها تتفقده، علَّ المعجزة حصلت. لا جديد! لا يزال في غيبوبته. تفحّصت المصل، زوّدته بالادوية والمغذيّات اللازمة ووقفت تتأمَّله.

"أمَّ فادي! أمَّ فادي!". تركت ابنها وخرجت إلى الشرفة. "أمَّ فادي، قالت العجوز وهي على السطيحة أمام بيتها، تفضلّي اشربي القهوة معنا". "شكراً لك. إني آتية" أجابتها حلم وعادت إلى داخل بيتها الجديد مدركة أنَّ ساعة التعارف الحقيقي قد حانت. فقالت لنفسها: "أنا من عائلة الشمساني"، ضحكت حين أتى هذا الإسم على لسانها لكنّه أعجبها، تابعت "زوجي متوفٍّ ونحن من العاصمة، لن أذكر إسم ضيعتي الذي قرأته على تذكرة هويتي، ربّما كان إسماً مخترعاً أو ربّما كان صحيحاً واستطاعوا أن يعرفوا الضيعة ويعرفوني، لا ، أنا من العاصمة، ففي العاصمة تنصهر العائلات ولا يعود يُعرف منبتها، إنّها هوية فضفاضة يختلط فيها الجميع". ردّدت هذه المعلومات عدّة مرّات في رأسها. ونزلت السلم.

"أهلاً بالجارة" بادرها العجوز قبل أن تنطق بكلمة، "تفضلّي اجلسي". ردّت التحية بكل تهذيب وجلست حيث دعاها. كانت صامتة ومتحفزة في الوقت نفسه، أجوبتها جاهزة، لكن لم يودّه اليها أحد سؤالاً عن هذه الاجوبة وكادت الجلسة أن تنتهي من دون ان يُطرق باب هويّتها. فقط، سألاها عن صحّة ابنها وأجابتهما بأنّه أفضل وبأنّه سيتعافى إن شاء الله وردّدا من بعدها: "إن شاء الله خير".

توقّفت سيّارة أجرة. "السلام عليكم" أتى الصوت من بعيد. نهض العجوز مرحبّاً: "بو جلال يا أهلاً بك، لقد تأخرّت علينا هذه السنة، متى عدت؟" أجاب الرجل وهو يتوجّه نحو بيت بو فارس: "هذه مجيتي، لم أدخل البيت بعد، جئت أتفقّدكم أولاً". تعانقا ثم توجّه الضيف إلى المرأة العجوز وقال: "أمَّ فارس إنّي مشتاق إليك". قبّلها وهي ترحّب به. ثم إستدار نحو حلم وقال: "شو عندكم ضيوف... الست ليست من هنا". "إنّها جارتنا الجديدة..." وتابع بو فارس كلامه، وبو جلال ينظر إلى حلم وهو يردد في داخله مذهولاً: كم تشبهها، كم تشبهها!".

-الست أمَّ فادي، وهي من ... فأسرعت حلم إلى القول "العاصمة" وتابع بو فارس وتريد الاصطياف عندنا هذه السنة".

خرج بو جلال من شروده وذهوله وقال: "حقاً إن شوب العاصمة لا يطاق في مثل هذه الايام". كان بو فارس يسأله عن ابنه وحفيده و... بو جلال ينظر إلى حلم وهي لا تعير أيّ إهتمام لنظراته وكلّ سلوكه. فلطالما نظر إليها الرجال وغازلوها. استودعتهم وعادت إلى بيتها لتنصرف الى النوم باكراً بعد هذا النهار الطويل.

-7-

... فلطالما نظر اليها الرجال وغازلوها! "لو اكتفوا بالغزل!"...

إنتهت الست عفاف من شرب قهوتها. نهضت من سريرها وهيّأت نفسها للخروج. اقتربت من حلم، مسّدت على شعرها الطويل: "أنا ذاهبة إلى الحلاّق، اهتمي أنت بترتيب البيت هيا برهني عن شطارتك، أنا لا أتأخر كثيراً. قالت الست عفاف ذلك وهي تضع حمرة الشفاه على شفتيها أمام المرآة الكبيرة في مدخل البيت.

وقفت حلم في المطبخ لتغسل وتنظّف ما وسخّه الولدان الشابّان قبل ذهابهما إلى المدرسة. "لماذا تريدني الست عفاف؟ هل تريدني خادمة أم أداة لمتعتها الشخصية؟ هل انقلبت المقاييس وأصبحت النساء تعشق النساء؟ هل تركت جوزيت لأقع على جوزيت ثانية؟ هل جسدي وشكلي يستهويان النساء فقط؟"

وطء اقدام على الأرض. "هل عادت الست عفاف؟ هل وجدت محلَّ الحلاّق مقفلاً أم انّها تحجّجت بالحلاّق لتفاجئني في عملي؟" التفتت إلى الوراء ورأته يبتسم. كان الخواجة وجيه. "هل نسي سيدي شيئاً؟" لم يجبها، فتابعت علمها. بقي هو واقفاً في باب المطبخ ينظر اليها. تأمّل كلَّ جسدها، توقّف نظره عند مؤخرّتها وتخيّلها عارية، فاقترب منها، أحاطها، من الخلف، بذراعيه وقال: "اتركي الجلي ستكملين لاحقاً". نظّفت يديها من الصابون. كان لا يزال جسده يلاصق جسدها. تسمّرت مكانها من دون حراك من دون تنفّس. لم يمسُّها رجل من قبل. هل يعطف عليها لأنها من دون أب؟ التصف بها أكثر. ماذا يجري معها، ماذا يفعلون بها؟ "الست عند الحلاّق ولن تتأخَّر" قالت، لانها ما عادت تعرف كيف تتصرّف: "أعرف"، أجابها وهو يدير وجهها نحوه: "هل تعرفين أنك جميلة جداً يا حلم؟" نظر طويلاً في عينيها، تينك الغابتين الواسعتين وحين تحوّل كلّ وجهها إلى ثغر

شهيّ، قبّلها وأطال تقبيلها وهو يشدُّ بجسده على جسدها. ثم أخرج عضوه المستنفر من فتحة بنطلونه، أخذ يدها وقال: "امسكيه". هل كان ذلك حقيقة أم كابوساً؟ مدّ يده إلى ما بين فخذيها وأخذ يداعبها. استسلمت وثابرت بالاستسلام لأنه أثارها من دون أن تعلم ماذا يحدث لها. وفاض من عضوه ذلك السائل الابيض الدافئ على كف يدها. قبّلها بسرعة وهو يلهث، ثم تركها ودخل الحمّام ليغتسل. وحين عاد، كانت حلم ما زالت مذهولة ويدها تحت ماء الحنفية. "هذا لك" سمعته يقول. استدارت نحوه، كان يحمل بيده قطعة نقدية كبيرة. سألته: "لماذا هذا المال؟" "خذيه، سأعطيك غيره الكثير في ما بعد". قال ذلك، وضع المال على الطاولة وانصرف من جديد إلى عمله، تاركاً حلم لتساؤلاتها: "لماذا أعطاني المال؟ هل يكفِّر به عمّا فعل معي؟ هل هي عمليّة مقايضة؟" خبّأت المال في خزانتها وتابعت عملها.

-8-

استفاقت حلم، في اليوم التالي، على صياح الديكة. كانت الشمس لم تبزغ بعد. في العاصمة كانت تستفيق على صوت المؤذّن الذي يخترق سكون الفجر داعياً الناس إلى الصلاة. نهضت من سريرها، فتحت نافذة غرفتها وأخذت تتنشّق هواء تلك الضيعة النقي، وهي تفكّر بحالها. وحين فكّرت بحالها مَثُل أمامها تذكرة هوية وناي. "أين الناي؟" تساءلت. كان بالقرب من سرير بانها. أخذته ونفخت فيه. ارتعشت شفة فادي العليا. "هل يسمع؟" نادته، نادته. لم يخرج من غيبوبته. أخذت الناي من جديد ونفخت فيه طويلاً وتهيأ لها أن أبنها يبتسم. "تهيّؤات!" أحياناً نعتقد أنّها حقيقة. غمرت الناي بيديها ضمّته إلى صدرها وقالت: "لستَ فقط مفتاح ذاكرتي المنسيّة، بل أنت أيضاً مفتاح غيبوبة ابني، سأنفخ فيك كلَّ صباح وكلَّ مساء، عند طلوع الشمس وعند غيابها، إلى غن تنبعث الحياة مجدداً في جسد فادي". هكذا أصبح العزف على الناي صباحاً ومساءً طقساً مقدَّساً لديها، لم تتخلّ عنه يوماً إلى أن...

"سأعتني بتربيتهن سأفهمه معنى الحياة وأنقل إليه تجربتي كي يتعلّم ولا يقع في الخطأ. لكن إن سألني عن والده فبماذا أجيبه؟ هل سيقتنع بما سأقوله له؟ وقبل ذلك هل يمكن أن أخبره بكلّ ما جرى معي قبل أن أقرّر إنجابه؟

-9-

هل ستخبره بكلّ ما جرى معها؟

عادت الست عفاف مسرّحة الشعر، أنيقة،جميلة: "هل اتصل بنا أحد؟" "لا" أجابتها حلم. "خذي هذا العطر، إنه لك". قالت ذلك ووضعت زجاجة العطر على الطاولة من دون أن تنظر إلى حلم. ثم رفعت سمّاعة الهاتف، طلبت رقماً وتحدّثت طويلاً.

أما حلم فدخلت غرفتها وأخذت تفكر: "مالٌ منه وعطرٌ منها! هل هي تجارة إذاً؟ فلتكن ما تريد. أنا، الآن، أمسك بحبال اللعبة، فإن أغاظتني الست سأخبر زوجها عنها وإن هو أغاظني سأخبر الست عنه وسأتحكّم بهما معاً، إذ انَّه من غير المعقول أن يقبل أحدهما بما يفعل الآخر معي..." وسرعان ما شكَّكت بصحّة تحليلها فتساءلت: لكن لماذا كانا معاً حين ذهبا إلى الميتم؟ كنّا، في ذلك الميتم، قد تعوّدنا أن تأتي سيدة وتصطحب معها إحدى البنات. لماذا أتيا معاً؟ هل كانا متفقّين على اختيار من يناسب ذوقيهما؟ هل يعل السيد وجيه أنّ زوجته تحبّ النساء وميولها غير طبيعية؟ وهل تعلم ، هي أنّ زوجها يخونها؟ وهل يفعل ذلك مع نساء أخريات؟ لا! حتماً لا! وإلا لما دام زواجهما وكيف يدوم زواج بين امرأة سحاقية ورجل خائن؟ من المؤكد أنَّ كلَّ واحد منهما يمارس رغباته بالسرّ ولا يبوح بها أمام الآخر".

وظلّت حلم تعالج هذه الافكار في رأسها بصمت إلى أن أتى المساء وجلس الزوجان معاً في الصالون. نادت الست عفاف، حلم وطلبت منها أن تحضِّر الشاي لهما. وحين دخلت عليهما حاولت أن تقرأ شيئاً ما على وجيههما ولكنّهما كانا يبتسمان كأنّهما بريئان. قدّمت حلم الشاي، وقبل أن تنسحب سأل السيد، زوجته إن كانت راضية على حلم وأجابته بكلّ غنج ودلال بأنَّ المهم هو أن يكون، هو، راضياً عنها. "ماذا يقصدان؟ هل هي مجاملة خبيثة، كاذبة يتستّران وراءها لإخفاء دواخلهما، أم إنّهما يعلمان بالحقيقة عن نفسيهما؟" لم تستطع حلم الاجابة عن اسئلتها هذه التي تزايدت مع الوقت إذ أنّ الست عفاف استمرّت في ممارستها مع حلم واستمر السيد وجيه أيضاً، كأنهما يتقاسمان الاوقات بإنتظام الدروس. وحلم تجمع المال والهدايا، إلى تلك اللحظة التي ما عادت تفهم خلالها ماذا يحدث.

ترك السيد وجيه البيت ودخلت حلم، كالعادة، لتدلّك جسد سيّدتها وتمارس معها السحاق. كانا في بداية عملهما، حين فُتح الباب ودخل عليهما. تجمّدت حلم، ثم نهضت وأسرعت لارتداء ثيابها. "لا، أكملي عملك" قال لها وهو يسحب الملابس من يدها. أمّا الست عفاف، فلم يرفّ لها جفن، ضمّت حلم إليها وتابعت. كان هو ينظر إليهما ويهتاج. وعندما بلغ اهتياجه مرحلة الفعل، خلع ثيابه بسرعة

ودخل المسرحيّة. اقترب منهما ومرّغ لسانه على كل أنحاء جسديهما، ثم عانق حلم بحرارة، ثم ركع بين ساقينها، رفعهما إلى الاعلى وافترعها فصرخت وقال لها بأنها، بعد الآن، لن تشعر بالالم. أمّا الست عفاف فنهضت وأصبح سجد حلم بين رجليها وهي منتصبة على السرير. رفع السيد وجيه ذراعيه إلى ثدييها، وضع فمه على الكتلة المكسوّة بالوبر الاسود، وبدأ العمل الذي انتهى، بعد فترة، بتأوهات وبتشنجات وبنشوة ثلاثيّة بدأتها الست عفاف بصيحة مفاجئة، تبعها اسراع في حركة السيد وجيه داخل حلم، قبل تلك الارتعاشة التي خرجت من فمه المفتوح بشكل تنهدات متقطعة. أما حلم، فاعتصرت نشوتها بصمت قبل أن تتركهما وتخرج مذعورة وهي تردّد، في ذاتها:"انهما متواطئان فعلاً، وأنا الضحيّة". وأدركت حينها أنهم اناس، لا عيب عندهم وأنّهم يستغلونها لاشباع شهواتهم وأمراضهم النفسيّة.

كان السيد وجيه يلاحظ ميول زوجته السحاقية، وكانت هي تلاحظ اندفاعات زوجها الشهوانيّة تجاه كل امرأة جميلة. كانت هذه الملاحظات تسبب لهما الشجال أحياناً وكلٌّ منهما ينفي ميله أمام الآخر إلى أن قرّرا، ومن دون كلام بينهما، أن يعيش كلٌّ واحد منهما كما يريد. هذا القرار كان نوعاً من التّواطؤ الصامت بينهما وقد أتيا بحلم التي كان لجمالها ونعومتها وقع طيّب على غرائزهما المنفلتة، لكي تبقى ممارساتهما داخل البيت. هكذا اعتبر السيد وجيه ان زوجته لا تخونه لأن حلم امرأة وهي بالتالي لا تجرح رجولته، والست عفاف اعتبرت، حلم، الاداة التي بواسطتها يمارس معها زوجها الجنس كما هي تحبّ إذ أن هوّاماتها كانت دائماً تدور حول علاقة ثلاثية تكون هي فيها تماماً كما كانت في العلاقة السبقة. فهي لا تحبّ ان يفترعها الرجل بقد ما تحب ان يداعب بظرها. انها من النوّع الذي لم يعرف النّشوة الفرجية وبقى على مستوى النشوة البظرية. وهي في ذلك لا تختلف عن كثيرات من النساء اللواتي ينجبن عدداً لا بأس به من الاطفال من دون أن يشعرن ولو مرة واحدة بما يسميه علم النفس orgasme vaginal . وهوّامات السيد وجيه، هي أيضاً، كانت تدور حول مشاهدته لنفسه وهو محاط بالنساء العاريات حيث إنّه يستطيع أن يشغل، في نفس الوقت، يديه ولسانه وشفتيه وعينيه حين يكون عضوه داخل إحداهنَّ. لم تفهم حلم كل هذه الأواليات. لكنّها لم تستطع نفيتواطئهما.

-10-

استقيظ بو جلال باكراً، كعادته، جلس على شرفة غرفته وأخذ يتأمل الضيعة وبساتينها المسيّجة بالعلّيق. هدوء تام وبرودة منعشة جعلاه يفكّر بأنه أحسن الفعل حين ترك العاصمة وحرّها وعاد إلى الضيعة سابقاً عائلة ابنه التي ستلتحق به قريباً.

كان هادئاً يشرب قهوته الصباحية، حين سمع صوت ناي شجيّ. "هل أنا أحلم؟ لا! لست نائماً. ولكن من أين يأتي هذا الصوت وهذا النغم الذي أعرفه جيداً؟"

وقف، أسند ذراعيه على حافّة الشرفة وركّز انتباهه كي يتعرّف على مصدر الصوت. تراءى له أنّه آتٍ من البناية المجاورة، من بناية بو فارس. "من يعزف هذا اللحّن الحزين في مثل هذا الوقت؟ إنه شبيه بلحن سمعته منذ زمن طويل، حين كان ذلك الراعي وزوجته الجميلة، لا بل الرائعة الجمال،يهتمّان بقطعان الخراف والماعز التي كنت أملكها في ا لضيعة، قبل بيعها وانتقالي مع ابني الى العاصمة. كم تغيّرت ضيعتي هذه! قليل من أهلها كان يعرف العاصمة من قبل. كانوا كلُّهم يزرعون أرضهم ويعتاشون من ريعها. بعضهم، وأنا منهم،كان يملك قطعاناً من الغنم والماعز مع الارض. كنّا الإغنياء الميسورين في ذلك الوقت. بل كنت أنا زعيمهم كلهم. كنت المختار و"حلاّل المشاكل" يقصدني كل من اختلف مع آخر لأبتّ في قضيتهما. لم نحتج يوماً إلى المحاكم العدلية، التي لم يكن لها وجو، أصلاً في ضيعتنا. باركا الله هذه الضيّعة التي استطاعت أن تحافظ على وحدتها وتعايشأبنائها. كنت دائماً أخاف من تأثير المدينة في شبّانها لكنّهم من أصل طيّب فعلاً!"

توقّف صوت النّاي وغرق بو جلال في ذكرياته البعيدة. و"الشيّخ بو جلال"،كما كان يسمونه،كان مختار الضيّعة حين قصده ذلك الشاب الغريب مع زوجته طالباً منه العمل والسكن.

-ماذا تستطيع أن تعمل؟ سأله يومها.

-كل ما تطلبه منِّي يا سيدي. أنا شاب وقادرٌ على كلِّ الأعمال وزوجتي صبيّة، وتتقن كلَّ أشغال البيت. جرّبنا قبل أن تأخذ قرارك، أرجوك!

نظر إليهما المختار وصمت للحظة يتأملّهما. شاب وسيم، بيضاوي الوجه، شعره بنّي أملس، عيناه سوداوان واسعتان، شفتاه مكتنزتان، نظراته جريئة ومتحدّية ويداه ناعمتان مرهفتان. "ماذا يستطيع أن يعمل هذا الشاب بهاتين اليدين الرقيقتين؟"حوَّل نظره إليها؛ جمال مدهش، قامة رشيقة مشرئبَّة، رأس مرفوع

مغطى بمنديل صغير، يظهر من تحته شعر أسود لـمّاع. عيناها مشقوقتان كعيون الظبية. أمّا لونهما فكان محيّراً، إنه لون أزرق يميل إلى الأخضر ويذّكر بصفاء البحر في بداية الشتاء. بشرتها ناعمة ملساء ملوّحة بالشمس. نظراتها تذكرّ باستنفار نمرة غير مروضّة ويداها خشنتان شقيّتان. "ما هذا التناقض؟"

انتبه المختار لنفسه، تنحنح، خرج من شروده وتوجّه إليهما بنبرة عالية، صارمة:

-لكن لماذا أنتما هنا، من أين أتيتما؟

-إننا من بلد بعيد، أجاب الشاب وصمت.

-أيّ بلد؟

....

-أين أوراقكما الثبوتيّة؟ من أنتما؟ قال المختار بغضب.

-أرجوك! لا تغضب، واعطني فرصة صغيرة لأروي لك قصتّنا.

-أعطني أوراقك أولاً ثم أخبرني.

-أوراقنا؟ لا نحمل أوراقاً... لقد مزّقناها.

-هل تهزأ بي؟ صرخ المختار.

-لا! أقول الصراحة، مّزقناها كي لا يتعرّف أحد علينا و...

-هل أنت مجنون؟ وهل لي أن...

فقاطعه الشاب قائلاً:

-ارجوك افهمني، لم يفهمني أحدٌ عندنا، ولهذا السبب هربت مع زوجتي كي نعيش في بلد لا يعرفنا فيه أحد.

-وماذا تقصد؟ هل تعتبر الدنيا سائبة، نتنقَّل فيها كما نريد ونختار حياتنا كما نريد ونكذب على هوانا ونطلب من الآخرين أن يصدّقوا أقوالنا هكذا لوجه الله؟ أو أنّك تستخفُّ بي؟ ... احتياالك واضح...

-لست محتالاً! هذا كلُّ ما أستطيع قوله. على كلِّ حال، شكراً لك، سنتابع ترحالنا، لن نعود مهما قست علينا الدينا.

وبعد أن قال ذلك، اقترب من الشابة، ضمّها إليه قائلاً: "فلنرحل، وسنبقى معاً، نحياً معاً ونموت معاً ". لم تجبه بل هزّت برأسها إيجاباً وابتسمت.

"يا لها من ابتسامة تُفتح لها أبواب السماء! هل أغلق بابي دونها وأتركهما يرحلان من دون أن أشبع حشريتي من معرفة قصّتهما المزعومة؟"

-أكمل قصتك، أيها الشاب، ولا تحاول الكذب لأنني قادر على اكتشافه، أنا بشيل الشعرة من العجين، لا تخدعني، قال بو جلال بنبرة صارمة كي يفهم الشاب أنه جادّ وذو سلطة. ألم يكن هو مختار الضيعة، ألم يكن حلّال مشاكلها؟

-سأروي لك قصتي باختصار. "ريم"، قال ذلك وأشار إلى الشابة، كانت ابنة راعي الاغنام عند أهلي، وأهلي كانوا ملاّكين كباراً في بلدتنا. ولكنّي أغرمت بها وأحببتها حتى الجنون... وهي أيضاً أحبتّني. نظر إلى ريم وهو يتكلّم على حبّهما، واذ بوجنتيها تتورّدان خجلاً ولكنّها إبتسمت له وأفهمت المختار أنّ ما يسمعه هو صحيح. وتابع الشاب... فقرّرنا الفرار معاً لنهرب من قسوة الأهل، أهلي وأهلها. وأتفقنا أن نعيش من تعبنا وشغلنا وأن نحقّق حبّنا الذي لم يفهمه ولم يرض عنه أحد؛ أهلها مانعوا لأننا من ديني مختلفين وأهلي مانعوا لأنها ليست من مستوانا، بحسب زعمهم، ولأنها من غير ديني أيضاً. حاول أهل ريم إبعادها عني وأرسلوها إلى أقرباء لهم في مقاطعة ثانية، فلحقت بها. وحاول أهلي إبعادي عن البلاد بحجة إتمام دروسي، فرفضت واشترطت أن أتزوج ريم قبل سفري لكي ترافقني، فرفضوا بدورهم وهدّدوني بأنهم سيصرفون أهل ريم من العمل عندنا وهدّدتهم، بدوري بالانتحال. فأغلقوا موضوع السَّفر ولكنّهم ظلّوا يضايقونني ويتلذَّذون بتعذيب قلبي بشتّى الطرق فقرّرت أن أقهرهم جميعاً وأن أنتصر لقلبي ولريم حبيبتي. وهكذا هربنا معاً من دون أن نحدّد وجهة لهروبنا.

بعد هذا القول اقترب من ريم وضمّها إليه بأحد ذراعيه وصمت ينتظر ردّة فعل المختار الذي علّق قائلاً:

-وهكذا تركت، وتخلّيت عن كل ثروة والديك كي تعيش في التعاسة والشّقاء؟

-لست تعساً أبداً وللشقاء دواء. أعيش مع ريم وهي عندي أغلى من كلِّ كنوز الدنيا!

كان المختار يستمع اليه ويسترق النظر إلى ريم وهو يحدِّث نفسه قائلاً: "إنّها حقاً آية فنيّة، لم تر عيني إمرأة بجمالها من قبل. ولكن من يضمن لي صحّة قول هذا الشاب؟ وكيف لي أن اتأكد من أنّه رجل شريف، كما يدّعي، وليس مجرماً فاراً من وجه العدالة في بلده؟ ومن أيّ بلد هو؟" حاول أن ينتبه جيّداً إلى

لهجة الشاب كي يتعّرف الى بلده وظنَّ انه من بلد معيّن غير بعيد، ولكنّه لم يكن متأكداً من ظنّه فتخلّى عن السؤال كي لا يعتقد الشاب أنّه جاهل لا يعرف التمييز بين اللهجات جيداً. وآخر شيء كان يُقرأ على وجهه حين انتهى الشاب من كلامه هو هذا السؤال غير المنطوق به: "هل بإمكاني تحمُّل مسؤولية من هذا النوع؟..."

قرأ الشاب الشك في نظرات المختار إليهما، فسارع إلى تبديده قائلاً:

-أنا لا أملك إلا صدقي، ستثبت لك الأيام، اذا أبقيتنا هنا، هذا الصدق... لك كل الحقّ بالارتياب في أمرنا... ولكن أرجوك أن تختبرنا.

وفكّر المختار: هل هو ممثّل بارع إلى هذه الدرجة، أم انّه صادق فعلاً. ثم قال متوجهاً إليهما:

-هل أنتما متزوجان فعلاً وما هو دليلكما على ذلك؟

-نحن متزوجان أمام الله... حُبنا أمتن من أي زواج يباركه شيخ أو كاهن... وما هو الزواج إن لم يكن وفاقاً قائماً على الحب والاحترام. إننا فعلاً متزوجّان ولن يفرّق بيننا أي إنسان أو أي طقس أو أي دين. وإن كنت تشكّ بما أقوله أو لا ترغب في تصديقه ولا تريد تشغيلنا عندك، سنرحل إلى ضيعة ثانية وثالثة و... حتى نجد من في قلبه رحمة يأوينا ويثق بنا ويصدقنا.

-هل هذا تحدٍّ لي ولرحمتي؟ المختار ثائراً. وتابع بصمت: على كلِّ حال، فإن كان كاذباً، فأنا المختار، يعني أنا أفضل من هو مخوّل لتسليمه إلى العدالة إذا ما إكتشفت حقيقة أخرى غير التي عرضها أمامي، وأنا قادرٌ على إكتشاف الحقيقة! ثم توجّه إلى الشاب الجديد.

-حلى الآن تعرّفتُ إلى براعتك في الكلام ولكني لم أتعرّف، بعد، إلى إسمك.

-إسمي رضى.

ومن يؤكّد لي ذلك؟ وهي هي اسمها ريم كما ادعيّت؟

-لا حدسك في محلّه. إسمي الحقيقي غير رضى واسمها غير ريم. ولكن إسمح لي بأن لا أبوح بإسمي واسمها ولا بأسماء عائلاتنا... لا أريد أن يعرف أحدٌ هنا إسمينا، لأن، أهلنا، يبحثون عنّا وحتماً سيقتلوننا إذا عثروا علينا. أرجوك أن تفهمني و...

-ماذا ترجوني، صرخ المختار. ألا تدري أنّك تماديت في تعنتّك، كأنك أنت من يفرض شروطه عليّ؟

صمت رضى للحظة، ثم اعتذر من المختار قائلاً:

-حقاً! لقد تجاوزت الحدود اللائقة وحدود المنطق. ولكن أعود وأرجوك أن تفهمني، لا أريد العودة إلى بلادي والابتعاد عن ريم... هذا كلُّ ما أطلبه في حياتي... ثم لو عدنا فريم سيقتلها أهلها حتماً لأنها امرأة تحدّت عادات قبيلتها... أنا قد لا يقتلونني لأنني رجل ويحقُّ للرجل في بلادنا ما لا يحقُّ للمرأة. ولكن ما نفع أن أعيش من دون ريم... سأقتل نفسي حتماً إذا فعلوا... "

كان كمن يكلّم نفسه ناسياً المختار أمامه ولكنَّ هذا الأخير أسكته وسأل:

-هل هي أيضاً من بلدك؟ وأيّة لغة تتكلم؟ لم أسمع صوتها حتى الآن.

-إنها بدويّة، ألم تلاحظ ذلك؟ وتتكلّم لغتنا، إننا كلُّنا من أصل واحد حتى ولو تعدّدت لهجاتنا وتعددت مستوياتنا وأديياننا...

وغرق المختار في ذاته يفكّر وهو ينظر إلى ريم: إنها حقاً بدوية في زيّنها وسمرتها وقامتها الممشوقة وعينيها الساحرتين وشفتيها المشبعتين والدقّة الزرقاء على ذقنها والتي كأنها نقشت، فقط، لتردّ العين عن ذلك الوجه الساحر... "ربّما امتلكتها يوماً !"

"هذا كان توقّعي وأملي غير الواضح، غير المعلن حين قبلت بتشغيلهما عندي. رافقتهما إلى القبو المعتم ، أعطيتهما بعض الامتعة الضرورية لتأمين حاجاتها وانصرفت قائلاً لها:

-غداً تأتين باكراً إلى منزلي وستعلّمك الست ما هو مطلوب منك.

-بكل تأكيد، أجابت وهي تنظر إلى الأرض.

-أما أنت، الذي اسمه رضى، فسنرى، غداً، ما بإمكانك أن تعمل، الصباح رباح.

دخلا القبو وأرسلت بطلب بعض الشبان ليؤمنوا لي الحراسة وليراقبوا تحرّكات رضى وريم بشكل مستمر. وبعد أن عادت زوجتي من زيارتهما وأخبرتها بالأمر دخلتُ وانكفأت على ذاتي وسرحتُ بي الأفكار التي أعادتني إلى مرحلة الشباب حين كنت مغرماً بتلك الفتاة الجميلة والتي لم أجسر على الزواج بها ولاحتى البوح لها بحبّي، لأنها كانت غير لائقة بي وبعائلتي. كانت تجسّد جمال المرأة في نظري وكنت، فعلاً، أحبها، ولكنني أجبنت عن القيام بما يمليه عليّ قلبي. هل رضى أشجع منيّ؟ لقد اختار درب القلب، درب قناعاته الحقيقيّة...

ولكنّه ماذا يحصد الآن؟ هو متسوّل يبحث عمّن يصدقّه كي يؤمّن له لقمة العيش. أما أنا فورثت المخترة عن أبي وأعيش الآن في نعيم ويسر بعد أن تزوجت ابنة عمي التي فرضتها العائلة عليّ. لم أكن أحبها... ولكنيّ اعتدت عليها في ما بعد. وهكذا حافظت على سير الامور بشكل طبيعي. ولكن لا أخفي أنني حتى الآن أفرح لرؤية تلك المرأة التي أحببت وأشعر بقشعريرة كلما مرّت أمام دارنا ورمت علينا السلام. يبدو أنّ كلَّ مانترفّع عن فعله، لا يموت، بل يظلُّ كامناً في ناحية ما من شخصيّتنا ويستيقظ كلّما سنحت الفرصة. إذاً هذه الدنيا أو هذه الحياة هي إما فعل وإما ذاكرة! ورضى اختار الفعل.هل هذا صحيح؟

مرّ شهر وريم تأتينا كلَّ صباح، وفي كلِّ يوم كنت أراها أجمل وأجمل. أمّا رضى فكنت قد طلبت منه أن ينكش الحديقة وأن يهتم بالاشجار والزُّهور. وخلال هذا الشهر، كان تقرير زوجتي بخصوص عمل ريم، جيّداً، مع ملاحظة بأننا لسنا بحاجة إليها بشكل مستمر، ويكفينا أن نطلب مساعدتها عند اللزوم فقط. وكنت أحاول إقناع زوجتي بأن تدلّل نفسها وترتاح من شغل البيت؛ القهوة الصباحيّة منيد ريم كانت، بالنسبة إليّ، من أمتع اللحظات. ولكنّها كانت تصرُّ على موقفها وأنا أحاول عدم فهمها كل لا تشك بشيء، كي لا تكتشف إعجابي بريم. أما تقرير الشبّان بخصوص رضى، فكان هو أيضاً جيّداً، لم يلاحظ أحد منهم، في تصرّفات رضى أو أقواله، ما يدلُّ على أمر يرتاب فيه. كانت تصرفّاتهما، وهو وريم لائقة وحياتهما هادئة. وفي كل مساء كانا يدخلان القبو ويبرحان فيه حتى الصباح".

قرّر المختار أن فترة الشهر تلك كانت فترة كافية لاختبارهما واختبار صحة نواياهما وأقوالهما. ولكن مشكلة هويتهما طرحت عنده من جديد. فماذا سكون وضعهما إن بقيا في الضيّعة؟ ولكن حين نريد تنفيذ أمر ما، يبدو أننا نجد دائماً أعذاراً وتبريرات للقيام به، والمختار، بو جلال، وجد التبرير المقنع لرغبته في ابقاء رضى وريم في خدمته. وهذا التبرير أتاه على الشكل التالي: "إنّ ريم ورضى ليسا الغريبين الوحيدين عندنا، ففي ضيعتنا يوجد عدد لا بأس به من المشرّدين الذين هربوا من بلدانهم أثناء المجاعة في الحرب العالمية الأولى، وهن أيضاً كانوا لا يملكون أوراقاً ثبوتيّة ويُعرفون الآن بكنياتهم التي اكتسبوها من خلال الأعمال التي قاموا بها: فهذا رشيد الشحّاد الذي وجد داخل بطن ناقة ميتة، يقتات من لحمها النتن، وهذا سمير المبيّض الذي يدور على البيوت ليبيّض الأدوات النحاسيّة، وهذا وليد الحلّاق الذي يتراكض الرجال إلى دكانه لقص شعورهم وحلق لحاهم. وهذا... وهذا... كلّهم لا يملكون هوية ولا ِأحد يسأل عنهم. وكيف يُسأل عنهم وضيعتنا بعيدة جداً عن مركز السلطة واهتمامها؟"

حسم الأمر، بعد أن أقنع نفسه بالافكار السابقة ودعا رضى وريم إلى بيته كي يتداول معهما، من جديد، في أمر بقائهما وأمر أجريهما، إذ انه كان قد اكتفى، في المرحلة السابقة، بتأمين أكلهما وملبسهما فقط وذلك بما تيسّر عنده وعند زوجته من ملابس عتيقة وفي بيته من طعام وغيره... ولكن زوجة المختار أصرّت، يومها، أن يكون الاجتماع بحضورها، لأن لها بعض الملاحظات ولأنها، في داخلها كانت تريد ابعاد ريم عن أنظار زوجها الذي بدأت تحس بما يجول في دواخله.

"وتمَّ القرار، في تلك الجلسة، ووفقاً لرغبة زوجتي بأن يهتمّ رضى وريم برعاية أغنامنا، لأن الرّاعي الحالي كان قد أصبح عجوزاً. لم أمانع ولكنّي تدخّلت وأصررت، بدوري، أن تستمر ريم في خدمتنا، على الأقل يوماً أو يومين في الأسبوع، فوافقت زوجتي، رحمها الله، على مضض. كنت أعلم أنّها تغار من ريم وكانت تخفي هذه الغيرة. هل الست تغار من خادمة! وحسمتُ الأمر قائلاً:

-ستذهبان غداً مع مراد، وهو اسم الراعي العجوز، إلى السهل ليدلّكما على المراعي، وسيستمر مراد بمرافقتكما إلى أن تتقنا الرعاية جيداً وتتعرّفا إلى كلِّ متطلباتها: حينها سأدع مراد يرتاح من العمل الذي أمضى حياته فيه.

ابتسم رضى وتوجّه إليّ قائلاً:

-أنسيت أن ريم كانت راعية أغنامنا؟ يمكنك أن تطمئن، سنتدبّر الأمر بسرعة، فما على مراد إلا مرافقتنا مرّة واحدة كي نستدلّ على الطريق، بعدها سنقوم بالعمل وحدنا.

-لم أنس، ولكن لريم مهمّة أخرى عندنا في البيت، كما أتفقنا... ربما احتجناها أكثر من يومين في الاسبوع... قلت ذلك من دون أن أنظر إلى زوجتي وتابعت: عليك أن تتّكل على نفسك لا على ريم.

تنحنحت زوجة المختار وقالت:

-لا! لسنا بحاجة إلى ريم إلا مرّة أو مرتين على الأكثر، في الاسبوع، فهذا كافٍ جداً. وإذا كانت تتقن رعاية الإغنام فلتنصرف إلى هذا العمل مع زوجها، فأنا لست بحاجة ماسة إليها. ثم نظرت إلى زوجها وتابعت: ألم نعش من دون خادمة، كلّ الأيام السابقة؟

ساد الصمت للحظة، وأدرك المختار بسرعة أنّ عليه ألا يعاند زوجته أمامهما، وأنّ عليه أن يظهر لا مبالاته تجاه ريم، لأنها كانت، فعلاً، تعجبه، وربما

خطّط في رأسه امكانية المغامرة معها يوماً ما. فسارع إلى القول وكأنّه لا يكترث لأمر ريم: "على كلّ حال ستذهبان غداً مع الرّاعي، كما اتفقنا. وحين تحتاج زوجتي إلى ريم تتدبّر الامر معها. فأنا لا دخل لي في شؤون البيت".

ولكن حين انصرفا عدت إلى الموضوع وحاولت إقناع زوجتي بضرورة تشغيل ريم في البيت. "أنت زوجة المختار، قلت لها، ويحقُّ لك بأن تتميّزي عن نساء الضيعة. ثم إن لدينا المال الكافي. فلماذا لا ترفّهين نفسك وترتاحين من عناء الكناسة والجلي والطبخ وغيره لتنصرفي إلى تربية ابننا جلال؟" ولكنّها سارعت إلى الرفض.

-لا! لا! جلال لا يتعبني، فهو يذهب إلى المدرسة طول النهار وإذا لم أشتغل في البيت فسيقتلني الضجر، وأنا لا أحب الاسترخاء والكسل، فما زلت صبيّة وقويّة ونشيطة، أم أنّك تشكُّ في ذلك؟

-أبداً! أحاول فقط أن أراك مرتاحة، ومرّ في ذهني فكرة شيطانيّة فتابعت: أريدك مرتاحة لأن لياليا ستكون أطيب، أليس كذلك. فابتسمت من دون أن تجيب. وانتهى حوارنا بأن قلت لها: على كلّ حال "انت من يقرّر في هذا الموضوع".

"هل كنت، حقاً، أريد راحتها؟ كم مرّة يكذب الزوج على زوجته؟ ضحك بو جلال، وقال لنفسه وهو على شرفة بيته: والله لو حاولت أن أحصي أكاذيبي هذه لما استطعت، إذ كيف يمكن الصدق في حبّ من لا نحبُّ فعلاً؟ وتابع: لكن المسكينة رحلت ولا يجوز أن أقول ذلك الآن أو حتى أن أفكر به، لقد قضت حياتها في خدمتي وخدمة جلال، رحمها الله!"

-11-

غسلت حلم ابنها وقامت بعملها الروتيني تجاهه، حيث انها غيّرت كيس المصل وزودّته بما هو مطلوب، بحسب إرشادات الطبيب وحاولت أن تقوم ببعض أعمال البيت لتشغل وقتها وزمنها الذي تحوَّل إلى انتظار الفرج وعون الله.

إلى متى سأنتظر؟ لن أيأس، سيخرج فادي من غيبوبته سعود إلى الحياة ليمارسها، يروّضها وينتقم منها، هذه الحياة، بنت القحبة، التي دمّرت أمه. سيحيا ويكون قوّتي على الثأر. فكّرت قليلاً ثم قالت لنفسها وكأنّها خافت، إن كانت نواياها سيئّة، أن يعاقبها الله ويحرمها من ابنها: لا! حين يعود فادي إلى الحياة لن أخبره شيئاً، سأتركه يحيا بهدوء، سأتركه بلا ذاكرة كي يعيش للمستقبل فقط.

سأعلّمه في أحسن المدارس وأجعل منه إنساناً نموذجياً يخاف الله ويحترمه الجميع.

انتهت من علمها وعادت بها الذاكرة إلى الماضي. نفضت رأسها وقرّرت أن تخرج من ذاتها وألا تفكر. أحضرت القهوة ونزلت بها إلى جيرانها، فرحبّوا بها بكلّ مودّة وعاتبوها على القهوة قائلين: ألا تحبّين قهوتنا؟ وقبل أن تجيب عن عتابهم دخل بو جلال قائلاً: تشربون القهوة وحدكم؟ هل نسيتم الجيرة؟

-"لا! أبداً، أجابه بو فارس، ولكن جارتنا الست أم فادي فاجأتنا بالقهوة و...

-وهو كذلك، أعرف، قال بو جلال، لقد رأيتها من شرفة بيتنا وهي تنزل الدرج، وشممت رائحة القهوة من بعيد ولهذا السبب أتيت من دون دعوة.

ضحك بو فارس وقال لنفسه: "هل القهوة هي التي جذبتك أم صاحبة القهوة؟" لكنه هزَّ برأسه، ولم يفصح عن فكرته، فهو يعرض صاحبه جيداً، ولكن لا يجوز الكلام أمام الضيفة الجديدة، ربما أخذت عنهم فكرة سيئة. وبو جلال هزَّ برأسه. لقد تفاهما من دون كلام.

سكبت حلم القهوة ودارت بها على الموجودين، وحين اقتربت من بو جلال، حدّق بها جيداً وتابع تأمله بها وهي تعود إلى مكانها، ثم غرق في صمت عميق لم يخرج منه إلا عندما سمع بو فارس يناديه قائلاً: "أيه وين صرت؟" انتبه لذاته واعتذر متحجِّجاً بانشغال باله على ابنه الذي كان من المفروض أن يلحق به اليوم، وقد تأخَّر. لم يصدّقه بو فارس الذي قال: "لا تقلق فلا زال النهار بأوله". لكن بو جلال استودعهم بعد القهوة وانصرف قائلاً: "سأنتظرهم في البيت وسأحضّر لهم الغداء، ربّما وصلوا الآن".

لم يكن ينتظر ابنه ولم يكن يعرف كيف يحضّر الطعام بل كان رأسه يعجُّ بالذكريات. عاد الى بيته وغرق في ذاته وهو يردّد: أمّ فادي! ما هو اسمها هي، وغابت صورتها عن ذهنه وغاص في صور أخرى وأخذ يحاول ترتيبها في سياقها الفعلي قبل أن يفعل الزمن فعله ويبعثرها في ذاكرته نتفاً.

انتظم العمل كما ارادت زوجة المختار، إذ أنها سمحت لريم بالعمل، في بيتها، يوماً في الاسبوع. وأصبح المختار يتحايل كي يبقى أطول وقت ممكن في البيت في ذلك اليوم. كان يجلس في غرفة مكتبه، يفلش أوراقه على الطاولة ويتظاهر بالانشغال، ولكنّه كان يطلب القهوة من وقت الى آخر، وتدخل عليه ريم، تقدّم له القهوة وتنصرف بسرعة. وفي كلّ مرة كان يردّد في داخله: "ما أجملها! آه لو..." ولا تكتمل الفكرة في رأسه لأنه ما كان يدري، فعلاً، ماذا يريد، ولكنّه كان

متأكداً من إعجابه بها. "هل سيتحول هذا الاعجاب إلى عشق؟" حين كان يصل إلى هذا السؤال، كان ينفض رأسه، وكأنه يفرغه من أحلام تراوده وينصرف بسرعة من البيت كي يهرب بذاته من ذاته.

"حقاً كنت أهرب، إنها كانت أجمل مّما أتحمل، كل عمري كنت أحب المرأة الجميلة ولا زلت أحبها ولكن ما أقسى الزمن! كنت حين أرى صبيّة شهيّة كان جسدي كلُّه ينتصب، أما الآن فما عاد شيء ينتصب، سوى نظراتي. كم نّبهتني أم جلال إلى تلك النظرات التي ما كانت ترتاح لها. "إنك تنظر إلى المرأة كأنّك تريد التهامها" هكذا كانت تقول لي . لم تكن على خطأ ولهذا السبب كنت أتحاشى النظر إلى ريم بوجودها كي لا أوقظ شكوكها وأنمّي كرهها لريم، لأنها كانت تستغلّ أية فرصة كي تحاول إبعادها... وهذه الفرصة توفّرت مرّة". وأخذ يتذكّر ما حدث.

بعد أكثر من شهرين على انتظام العمل في بيت المختار زاره رضى يوماً بعد عودته هو وريم من الرعاية. كان خجولاً وفرحاً معاً. بدأ كلامه عن الأغنام وأكّد للمختار وزوجته أنه أصبح يتقن العمل، ثم صمت لبرهة، فسارع المختار إلى سؤاله عمّا يريد فأجابه متردِّداً:

-هل لي أن أطلب منك مساعدة؟

ظنَّ المختار أنه يريد مالاً فأجابه:

-اطلب. ما هي المساعدة؟ هل تريد زيادة في الأجر؟

-لا. بل أريد منكما أن تعفيا ريم من مرافقتي كلَّ يوم إلى السهل.

فرح المختار بالطلب وانزعجت زوجته التي سألت قبل أن تجيب زوجها:

-ولماذا هذا الطلب يا رضى؟ كان الاتكال، بالاساس عليها، لأنها هي الراعية. فماذا جرى؟

-سيّدتي، إنّها... صمت قليلاً ثم تابع: إنّها حامل...

وأمام سكوتهما أكمل: إنّي أصبحتُ قادراً على الرعاية وحدي. اطمئنوا. ألم يكن مُراد وحده يهتمُّ بالقطعان؟

هنا أعترفُ بأنَّ مشاعري تضاربت إذ فرحتُ لإمكانية بقاء ريم في البيت، واستأتُ لأمر حملها. هل كنتُ أغار أنا بدوري من رضى؟ لم أعد أدري بماذا أجيب. فتركت لزوجتي الكلام وسمعتُها تقول:

-هذا يعني أنّها، أيضاً، لا تستطيعُ العمل في البيت وبخاصّة بعد أن يأتي الطفل. ثم نظرتْ إليّ وكنتُ لا أزال صامتاً لا أعرف تماماً ماذا سأفعل وقالت:

-أنا أريد خادمة بكلّ معنى الكلمة. وإذا كانت ريم لا تستطيع ذلك فليتدبّرا أمريهما. فنحن لسنا بحاجة إلى راعٍ حين تكون الامور ملبكة. ألفُ واحد في الضيعة يتمنّى العمل عندنا و...

وقبل أن تستفيض في الكلام تدخّلتُ بهدوء ولكن بحزمٍ وديبلوماسية:

-هذه سنّةُ الطبيعة، يا عزيزتي، وإذا كانت ريم حاملاً فهذا من حقِّها وحقِّ رضى. ولكنها لم تسكتْ يومها، وكأنها وجدت الفرصة التي كانت تبحث عنها دائماً فسارعتِ إلى القول:

-من حقِّهما، أعرفُ ذلك، ولكن ما لنا نحن في الموضوع ولماذا...

"أدركتُ في تلك اللحظة مدى توتّر زوجتي فتوجّهتُ إلى رض أطلب منه الانصراف كي أتداول في أمرهما مع أم جلال بهدوء".

انصرف رضى وحسدتُه، فعلاً حسدتُه، لأنه انصرف إلى ريم وتمنيّتُ للحظةٍ لو كنتُ مكانه، لكنّ كلام زوجتي أخرجني من شرودي القصير وأعادني إلى الواقع:

-بدأت الأمور تتعقّد، على ما يبدو. كنَّا بإثنين وسنصبحُ بثلاثة وأربعة، وربّما أكثر، فهذا الصنف من البشر "يبّذر كثيراً".

كان لدينا ابن واحد، لم تحمل من بعده زوجتي مرّة ثانية. هل هي متوترة بهذا الشكل لأن ريم الصبيّة تستطيع ما لا تستطيعه هي ؟ لو كانت ريم امرأة قبيحة ومسنّة، غير قادرة على الإنجاب هل كانت تصرّفت معها بهذه الكراهية؟ لا! أعرف جيّداً، وخبرتي وتجاربي في الحياة أكّدت لي أنّ المرأة لا تتحمّل امرأة ثانية أصغر منها سناً وأجمل منها طلعّة. هذا كان وضع زوجتي في تلك اللحظة. حاولتُ فهمها، ولكنّي وفي الوقت نفسه، أدركتُ أنّ عليّ تجاهل وضعها فسارعتُ إلى القول:

-وما العمل؟ هل نرميهما في الشارع؟

-لا اعلم ماذا سنفعل بهما، ولكن أقول لك بصراحة ما عدتُ أتحمل صوت وصراخ وعجقة الاولاد الصغار. فحاول أن تجد لهما مكاناً آخر اذا أردتَ مساعدتهما.

"لماذا نفرتُ من زوجتي حينها؟ لقد بدت لي ظالمة وقاسية. هل الغيرة تبدّل طباع الناسِ إلى هذا الحدّ؟ أم إنّها تكشف طباعهم على حقيقتها؟"

ولكنه تماسك ووعد زوجته بأنّه سيَجد لهما عملاً في مكان آخر وأخذ يسِّوفُ بتنفيذ وعده حتى وُلدت إبنتهما التي أصرَّ رضى على تسميتها حُلُم على الرغم من تدخُّل زوجة المختار لتغيير هذا الاسم لأنه لم يعجبها.

"والطفلة كانت صورة مصغّرة عن أمها ريم. ومنذ أن رأيتها رضيعاً دخلتْ قلبي وأحببتُها وتمنيّتُ، في داخلي، لو كانت إبنتي. كنتُ أرى فيها كلَّ محاسنِ أمها وزوجتي ترى فيها كلَّ مساوئ أمها، وكانت تعبّر عن ذلك وأنا صامتٌ أتأمل الطفلة الجديدة".

"حين سمعتُ صوت الناي لأول مرة من شرفة منزلي عدتُ بالذاكرة إلى مشهد لم أنسه ولن أنساه قط؛ بعد ولادة حلم بأيام قليلة، كنتُ على شرفة بيتي هذا في الضيعة حين سمعتُ صراخها وبعده سمعتُ صوت الناي إياه الذي سحرني. تركتُ الشرفة بسرعة، زوجتي لم تكن في البيت، وتوجهّت إلى القبو، كان بابه مفتوحاً والطقس صيف. نزلت الدرجات التي توصل اليه، وهي لحظة رأيتُ فيها أجمل ما رأيته في حياتي كلّها: ريم بثياب خفيفة دراعاها عاريتان وشعرها مسبول على ظهرها تنفخ في الناي للطفلة أمامها على الارض. تمنيّتُ في تلك اللحظة أن يتوقّف الزمن؛ لم يسبق لي أن رأيت ريم عارية الذراعين مكشوفة الرأس، لم أكن أعرف أنها تعزف على الناي، حتى إنّي لم أكن أعرف أنَّ لديها ناياً. لكن الحلم بتدّد بأسرع مما كنت أتمنى وأتوقع؛ رمت ريم الناي من يديها ورشّت على رأسها وذراعيها ملاية كانت بالقرب منها وقالت:

-هل يريد السيد فادي شيئاً؟

وماذا يريد السيد فادي؟ آه لو علمتْ ماذا كان يريد فعلاً! وكم الجنون قريب! كدتُ أقفز إليها وأضمها إلى صدري، لكن العقل جبان، ويلجأ إلى الحيلة ليخفي اندفاع العاطفة. قفزتُ فعلاً ولكني ضممتُ الطفلة إلى قلبي وقلتُ لأمّها: "ما هذا العزف الجميل ومن أين لك هذا الناي؟"

-كنتُ دائماً أنفخ فيه للأغنام يوم كنتُ راعية عند أهل رضى. وعندما قرّرنا الفرار حملته معي. والآن كلّما بكت حلم أنفخ لها في الناي فتسكت وتنام.

آه لو عرفتْ حلم كم أحببتُها وهي طفلة وكم أحببتُ أمها، بل كم عشقتها! ولكن أين حلم الآن؟

استفاق العجوز من شروده وذكرياته وقال لنفسه: لماذا تعاودني الذكرى هكذا؟ هل مجرّد رؤية وجه يشبه وجه المرأة التي أحببت يبعث في داخلي كلّ هذا الحنين؟"

لا! صوت الناي هو الذي أيقظ كلَّ ذاكرتي.

-12-

حين سمع صوت الناي للمرة الأولى، وهو واقف باكراً على شرفة منزله، ظنّ أنّه يحلم وخاف على نفسه من الخرف الذي يرافق الشيخوخة أحياناً. ولكن معاودة العزف عند غروب الشمس في ذلك اليوم، أكّد له واقعيّة ما يسمع، فثار فضوله وصمّم على معرفة العازف مهما كلّفه الأمر. استفاق باكراً، في اليوم التالي، وانتظر، واذ بالعزف يأتيه خارقاً سكون الصباح. حزم أمره، لبس ثيابه وخرج يتمشى في الحي، وتقصّد زيارة صاحبه، يو فارس، لأنه كان يعتقد أنّ الصوت يأتي من بنايته.

كانا يشربان القهوة، حين دخل عليهما. استقبلاه بالترحاب كما العادة في القرى، اذ لا غرابة في الزيارات الصباحيّة.

-أهلاً، بالشيخ بو جلال، قال العجوز، تفضّل.

-استيقظت باكراً وقلت لنفسي، إنكما مثلي تستيقظان مع طلوع الشمس ولهذا السبب جئت أشرب القهوة معكما.

-تعل أنّنا نستيقظ باكراً، لم نغيّر عاداتنا، ويسرّنا أن تشاركنا القهوة في كلِّ صباح، قالت أم فارس.

جلس الشيخ بو جلال معهما وأخذوا يتحدّثون بأمور عاديّة. وعندما خطر بباله أن يسأل عن مصدر العزف على الناي في بناية صاحبه، تردّد وقال لنفسه:"ربّما لم يسمع هذا اللحن أحدٌ سواي، ربّما بدأت أختل وأهلوس، هل أفضح أمري أمام الآخرين؟ لا! سأنتظر بعد".

وهكذا انتهت الزيارة من دون فائدة، وعاد بو جلال إلى بيته ينتظر ويراقب نفسه جيّداً. ولحظة غروب الشمس سمع الناي من جديد، فأسرع إلى بيت جاره والعزف لا يزال مستمراً. دخل بيته،كانا في المطبخ يتناولان العشاء. جلس معهما

من دون أن يلبّي دعوتهما إلى الطعام. كان شارداً وصوت الناي يملأ أذنيه، نظر إليه بو فارس بعد فترة صمت قصيرة وسأله: "هل تسمع هذا العزف الحزين؟".

تأكد بو جلال، حينذاك، من سلامة عقله وحواسّه وفرح بكلام جاره وسأله بدوره:

-من أين يأتي هذا العزف؟ ومن يعزف، هل تعرف؟

-أظن أنّ مصدره هو الشقة التي أجرّتها منذ أيام قليلة لأم فادي. قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى فوق. وتابع: إنها تعيش وحدها مع ابنها المريض. حتى الآن، لم نتعرّف إليها جيداً. مسكينة، يبدو أنَّ لديها مشاكل، ... تكفي حالة ابنها...

صمت الشيخ بو جلال وقال لنفسه: هل أسأله عن اسمها؟ لا! سيبدو له أنّي مهتم بها. فحوّل أسئلته نحو ابنها وأخذ يستفسر من بو فارس عن مرضه ووضعه. تأثّر بما سمعه وقرّر أن يزورها ويساعدها. استودعهما وخرج، نظر إلى الطابق الثاني قليلاً وكان يتسلّق السلم ولكنّه أعرض وقال لنفسه إنَّ زيارته في مثل هذا الوقت المتأخر، ربّما فُسِّرت بأنّها مغرضة "فهي تعيش وحدها... ولكني عجوز... إني حتماً من عمر والدها" وحين أنتبه إلى نفسه وهو يتردّد في أمر زيارة أمِّ فادي، استاء من ذاته وقال: فليفسرّوا زيارتي لها كما يريدون. قضيت فترات طويلة وأنا مختار هذه الضيعة وأساعد الجميع وأتعرف إلى الجميع وأدخل بيوت الجميع، فكيف لا أساعد إمرأة تعيل وحدها إبناً مريضاً. بعد هذا التحليل القصير رأى أنَّ من واجبه زيارتها فالأمر لا يتحمّل التردّد والحسابات. نظر إلى الساعة في يده، وتابع سيره نحو بيته وهو يقول: سأختار الوقت المناسب.

-13-

عادت حلم إلى بيتها وهي تقول لنفسها: لا ينقضي بعد إلّا هذا العجوز! هل هربت من كلِّ عالمي لكي أقع على عجوز متصاب؟ ضحكت وحدها لكن ضحكتها تجمّدت بعد لحظات إذ أن كلمة "عجوز متصاب" أعادتها إلى تلك السهرة التي كرّرت فيها هذه الكلمة مرّات عديدة.

بيت السيد وجيه كان ملتقى الأصدقاء والزوار بشكل مستمر، يأمّه كلُّ من أتى إلى العاصمة، ليقيم فيه، ويندر أن تمرّ ليلة مندون ضيف أو ضيوف. وحلم كانت محطّ أنظار كلِّ الزائرين، يغازلونها ويحسدون معلّميها عليها. ومعلّموها كانوا كرماء، لا يرفضون طلب الضيف مهما كان. وهكذا أصبحت حلم هديّة

جميلة يقدّمها السيد وجيه لكل من أبدى رغبة بالانفراد بها. تحوّلت إلى آلة لا تدري ماذا يحدث لها. كل ما كانت تعرفه هو أنّ الجميع يرغبونها، وبين الرغبة والتنفيذ كانت المسافة قصيرة جداً في ذلك البيت المضياف وهكذا أخذت الهدايا والأموال تتدفّق على حلم كلمَّا قطع أحدهم المسافة تلك. وأصبحت حلم تعيش شبه انقسام في شخصيتها. تنظر إلى نفسها فتراها منشطرة إلى شطرين، واحد منهما لا علاقة لها به، شخص آخر يمارس كلَّ أنواع المحرّمات المدفوعة الثمن، من دون حرج أو خجل، والشخص الثاني فيها، كانت تعود إليه حين تكون وحدها، فيقضُّ عليها، يعاتبها، يؤنّبها ويريها بشاعة أفعالها، وحين كانت تتحوّل تلك البشاعة إلى مشهد لا يُحتمل ولا يُطاق، ترمي حلم، هذا الشخص المؤّنب، بعيداً عنها، وتعود لتغرق بين هداياها، هي التي لم تكن تعرف معنى الملكيّة حتى الآن.

زارهم المعلم طانيوس يوماً، والمعلم طانيوس رجل عجوز ولكنّه يحبّ الحياة. تناول العشاء مع أهل البيت وهو يزفّهم بالنكات "الدسمة"، وبعد كل نكتة، كان ينفجر بالضحك ويعبق وجهه وينهي ضحكته بقبلة على إحدى وجنات حلم بعد أن يضمّها إليه ويحاول الاستمرار بضمّها ولكنّها كانت دائماً تتحرّر من بين ذراعيه وتمسح وجنتها براحة يدها والمعلّم طانيوس لا يفهم إذ أنه أعاد الكرّة مرّات عديدة في تلك السهرة التي دامت طويلاً، وتقرّر، في نهايتها أن يبيت المعلّم طانيوس في منزل السيد وجيه، هو أمر عاديٌّ جداً في ذلك المنزل.

دخل أهل البيت إلى غرفهم وأوت حلم إلى فراشها، حيث غرقت في ذاتها وأحلامها. لكن المعلّم طانيوس لم يستطع النوم، نهض من سريره ومشى حافي القدمين إلى أن وصل إلى غرفة حلم، فتح الباب بحذر ودخل. لم تستفق، فاندس في سريرها وأخذ يقبلّها على ثغرها ويداعب جسدها الدافئ، فاستيقظت مذعورة، وحين أدركت أنّه الضيف، نهضت بسرعة وهي تصرخ: عجوز ولا تستحي؟ عجوز ولا تستحي؟ لم تكن ترفض أن ينام معها أحدٌ، فهذه ممارسات تعوّدتها، ولكنها استهجنت أن يكون من يحاول مضاجعتها رجل عجوز، اذ أنها كانت المرة الأولى التي يحدث معها ذلك. في ما بعد اكتسبت حلم هذه العادة.

استيقظ أهل البيت على صراخ حلم، وحلّت المسألة بالضحك والمزاح وبكلام السيد وجيه الذي كان يردد وهو يضحك: "منّك هيّن يا معلّم طانيوس، بعدها نفسك خضرا، كنت قلّي ما كنت خوّفت البنت".

صمتت حلم وهي تراقب ابنها وقالت لنفسها: حقاً ذعرت تلك الليلة، ولكي أكون صادقة مع نفس الآن، أقول: ذعرت لانني كنت انتظر ابن السيد وجيه وليس

ذلك العجوز. كنت انتظر بشار[1]، ذلك الشاب الوسيم الذي كان يلاطفني ولا يجرؤ مقاربتي... كان يحترمني جداً! أخوه رعد، كان وقحاً، يتصرف بعصبية تامّة وبإندفاع متهوّر. كان يختلف جداً عن بشار. صمتت وهي تردّد، في داخلها، بشار... بشار...

وانقضى النهار وهي غارق في ذاتها وفي أفكارها. وعند مغيب الشمس أخذت الناي، اقتربت من سرير ابنها وأخذت تعزف. وحين يئست من جدوى العزف، توقّفت وقالت لنفسها: "عزف الصباح أفضل! إلى الغد إذاً ". نامت باكراً واستيقظت مع طلوع الشمس ونفخت في الناي لمدّة قصيرة قبل أن ترميه وتنصرف منكسرة من غرفة ابنها وهو تردّد: "لا حياة لمن أنادي"... وتستنهض نفسها وتردّد: "لكن الحياة ستعود لمن أنادي!".

-14-

طرقَ بابها، بعد ظهر اليوم التّالي. مضطرباً كان، لكنه ضغط على نفسه كي يبدو طبيعياً.

-مين؟ أتاه الصوت من الداخل.

بماذا يجيب؟ هل يقول اسمه؟ وماذا يعني لها اسمه وكل شخصه.

-أنا... أنا جاركم...

نظرت المرأة من ثقب الباب ورأته. "ماذا يريد هذا العجوز؟" همست في داخلها ولكنها قرّرت ألا تكسفه.

فُتح الباب وأصيب الشيخ بالدول للحظة أذ تداخل في رأسه الماضي بالحاضر وماج الزمن. كاد يناديها ريم لكنّه تلعثم وقال من دون أن يفقه تماماً ماذا يقول:

-علمت من بو فارس، صاحب البناية، أنّك تسكنين وحدك مع ابنك الصغير، هذه الشقة، فأحسست أنّه من واجب الجيرة أن أتقدم منك وأعرض عليك خدماتنا إن احتجت إلى شيء... تعلمين أنّي أسكن البناية المجاورة مع ابني وعائلته، وهم سيأتون قريباً... فإذا احتجت إلى... أرجوك لا تترددي في الطلب... جارك القريب أفضل من أخيك البعيد، كما يقال.

1- سأترك أسماء العلم من دون تصريف.

خجلت حلم من هذا اللطف وسارعت إلى دعوته:

-تفضّل، أدخل... فدخل وارفقته إلى الصالون وقدمّت له مقعداً مريحاً وجلست قبالته تشكره على لطفه واهتمامه ولياقته، اذ لم تزرها بعد، أحدٌ غيره.

نظر إليها بصمت وقال في نفسه: كم تشبه ريم! ولكي لا يثقل الجوّ بينهما خرج عن صمته وقال كأنه نسي ما قاله سابقاً:

-أنا بو جلال، كما تعلمين، وأنا، كما ترين يا بنتي، رجل عجوز، والعجائز يصبحون حشريين، يريدون التعرّف إلى الناس الجدد... ليس لدّي عمل أقوم به...وأود مساعدة الجيران... وحين علمت من بو فارس أنك وحدك سارعت للتعرف إليك أكثر ولدعوتك إلى زيارتنا ان أدرت...

-شكراً، بو جلال. أرجوك أن تعتبرني كابنتك ولن أوفرك إن احتجت إلى شيء... صمتت قليلاً ثم تابعت: يبدو أنّ العالم لم يخلو بعد من أولاد الحلال!

-أم فادي، تشرّفنا بمعرفتك واعتبري نفسك منّا... وصمت كأنّه دخل في غيبوبة: "ما هو اسمها وما هو اسم عائلتها؟" وعاد إلى ذاته حين سمعها تسأله وهي تستعدُّ للوقوف:

-كيف تشرب القهوة يا سيد بو جلال؟

-آ...آ... لا أريد إزعاجك. لن أصيل المكوث ... جئت فقط للتفقّد... سأزورك لاحقاً، اسمحي لي بالانصراف.

استودعها وعاد إلى بيته، دخل غرفته محاولاً الراحة والنوم. لكنّه لم يستطع ذلك، لأن آلاف الاسئلة تضاربت في رأسه وأعادته إلى تداعيات أوحى بها هذا الشبه الكبير بين أم فادي وريم.

فمنذ أن سلّمها إلى الميتم لم يعد يعرف عنها شيئاً. ثم أخذ يحسب السنين،فتبيّن له أن عمر أم فادي يساوي تقريباً عمر حلم، إبنة ريم، "فماذا حلّ بها يا ترى؟ لماذا أتت أم فادي إلى جيرتنا؟ هل جاءت لتوقظ في داخلي تلك المنطقة التي كنت دائماً أحاول طمسها؟ ما هذه الصدفة؟"

وانقضى الليل وهو على هذه الحالة، ولم ينتبه إلى ذاته إلا حين سمع صوت الناي، صباح اليوم التالي. فنهض من فراشه، جلس على الشرفة وهو يقول: "جئت الضيعة لأرتاح. لن أفكر بالموضوع مجدداً".

استمر صوت الناي وأخذ بو جلال يخطّط لزيارةثانية.

-15-

"أعتذر لدقائق"، قالت له حين اقترب بالمغيب. تركته، دخلت غرفتها، أقفلت الباب وراءها، وانطلق صوت الناي. حيث توقّف العزف فُتح الباب وعادت صامتة إلى مكانها ونظرت إلى العجوز كأنها لا تراه. أما هو فحار في أمرها وكاد يسألها. لكنّه سمعها تقول ووجهها جامد كاللوح:

-أعزف له، لابني فادي، وسأظل أعزف له كي يستعيد وعيه، وصحتّه ويكبر وأسمع كل الناس ينادونه "السيد فادي"... لكن!.

-لكن ماذا؟ أرجوك تابعي، قال لها، وقد استيقظت كل ذاكرته حين سمع أسم الولد مسبوقاً بكلمة "السيد" ؛ فهي عبارة طالما سمعها من ريم التي مثلت أمامه وهي تقول: "ماذا يريد السيد فادي... أمرك سيد فادي..." لكنّهما رحلا وحلم لم تبلغ السنة ن عمرها. رحلا وتركاها، وأمضيت سنتين في عراك مع زوجتي كي أستبقيها معنا ولكنّ عنادها، رحمها الله كان لا يوصف. ويوم نادتين الطفلة: "بابا"، كما يناديني جلال انتفضت زوجتي وقالت لها: "إنه السيد فادي وليس بابا هل فهمت؟" ثم توجّهت إليّ وقالت بلهجة شامتة : "أيُعجبك هذا؟ " وبعد حوار طويل بيننا أخذتْ قرارها: "المياتم وجدت لهذا الغرض يا أستاذ، ثم إن لدينا ولداً ولا أريد مشاكل لاحقاً بينه وبينها". وكنت أقول في نفسي من دون أن افصح: وإن أحبها جلال وتزوجها فأين المشكلة؟ كان رضى يقول لي دائماً: "سأترك حلم تختار من تريد وأودُّ، من كل قلبي أن تختار من غير دينها ومن غير مستواها، كي ينفتح الناس على بعضهم وينسوا كلّ ما يفرّق بينهم".

هل كرهتْ زوجة المختار، الطفلة الصغيرة، لأنها كانت تكره أمها؟ هذا الكره خلق علاقة متوتّرة بينها وبين زوجها الذي أحب الطفلة كثيراً وكأنه يقوم بعملية انزياح لعاطفته السابقة تجاه أمها، مما أوجد نوعاً من العلاقة الاوديبيّة المقلوبة في جو البيت؛ الأم تغار من الطفلة وتشعر أنّها تأخذ زوجها منها، والأب يعشق الطفلة ويخفي حبّه لها أمام زوجته التي كانت احياناً تفاجئه وهو يداعبها، فتثور وتغضب وتتّهمه بأنّه يهمل ابنه من أجل هذه الصغيرة التي لا "نعرف أصلها من فصلها". وهنا كان يراود المختار شكوك رهيبة: هل هي من سعى إلى قتلهما؟ انها لم تتأثر كثيراً حين وصل الخبر، وها هي تتحكّم بالطفلة بقساوة وظلم، تماماً كما تحكّم العهد التركي ببلادنا. "ولهذا السبب اقتنعتُ بفكرة الميتم آملاً أن يكون جوُّه رحوماً للاطفال، وهذا ما أوحى به وجه المديرة حين سلّمتها حلم وأوصيتها بالعطف عليها وقدّمت لها مبلغاً من المال كنت أعتبر أنّه مساهمة مني

للترفيه عن هؤلاء المساكين الذين لا يعرفون أهلهم ولا عطف الأهل. اعتبرت يوماً أني أقوم بعملية خلاص بالنسبة إلى حلم. هل كان ذلك صحيحاً؟"

- اليوم ستشرب القهوة عندي، قالت ونهضت من مكانها متوجّهة إلى المطبخ من دون أن تنتظر جوابه الذي أتى بهدوء تام:

-نعم يا بني سأشرب القهوة معك.

وحين غابت عن نظره عاد إلى شكوكه وذكرياته: هل أسألها عن اسمها؟ وهل يعقل أن تكون حلم؟ لماذا أربك نفسي بأمر وهمي؟ قبو فارس يعرف ريم جيّداً وهو لم يلاحظ الشبه بين أم فادي وبينها فلماذا استوقفني أنا؟ هل لأني عشقت ريم وذلك الوجه الذي حفر في ذهني ولم تقوَ السنون على محوه؟

- تفضَّل. هذه قهوة مرّة.

أخذ الفنجان من يدها، رشف منه قليلاً، وضعه على الطاولة وقال:

-هل السيدة أمُّ فادي من العاصمة أو من سكان العاصمة؟

-لا! من العاصمة.

-يعني الأصل من ...

-نعم.

ولكن لماذا هي هنا وأين زوجها~؟

-هل زوجك هو...

وقبل ان ينهي سؤاله أجابت:

-انه متوفٍ... توفّي... توقّفت قليلاً ومرّ في ذهنها الحادث وتابعت: بحادث أليم.

-عذراً! ما كنت أعرف.

-لكلٍّ منّا نصيبه في هذه الحياة. ولكي تقفل الموضوع تابعت: على كلّ حال من يعيش في ضيعة مثل ضيعتكم ينسى كلَّ آلام وقساوة هذه الحياة.

-ضيعتنا كانت أجمل في الماضي. الآن أصبحت "مبندقة". الجيل الجديد يريد التمدُّن فيبني بيوتاً من الباطون، لقد غيّروا معالم الضيعة كلّها!

-صحيح، البيوت القديمة هي فعلاً أجمل من البيوت الجديدة، ولكن الخضار في ضيعتكم يغطّي على بشاعة المباني الجديدة.

-إنه العليّق ولهذا العليّق قصّة غريبة، لقد نبت ونما بسرعة وغزارة بعد ذلك الحادث الذي هزَّ الضيعة كلّها. قال ذلك وتوقّف عن الكلام ورآهما أمامه ملطخيّن بالدم.

-الآن فهمت لماذا سميّت بتلّة العليّق.

-نعم! ولكن هل تعرفين اسمها الحقيقي؟ كان اسمها "ربيع الغيوم".

حين سمعت حلم اسم الضيعة، تجمّدت، بل ذعرت لأنّه اسم البلدة المدوَّن على تذكرة هويتها. "هل سيعرفونني؟" ولكنها تخطّت ذعرها وأظهرت اللامبالاة وتابعت حديثها ببرودة:

-ربيع الغيوم! إسم جميل. ولكن الإسم لا يغيّر شيئاً، فضيعتكم جميلة واسمها الحاليّ جميل. قالت ذلك وصمتت لأنها لم تستطع السيطرة على نفسها أكثر، ودار في ذهنها كلام سريع: إذاً، ما قرأته على تذكرة هويتي ليس كذباً! ولكن كيف لي أن أعرف أسماء عائلات هذه الضيعة؟ وقبل أن تنطق سألها: "وما اسمك انت؟" لم تتلعثم وحضر في ذهنها الإسم الذي كان السيد وجيه يتمتمه وهو يداعب جسدها:

-إسمي لولو، وتابعت كأن الأمر ليس مهماً: ما هو عدد سكّان ضيعتكم؟

لم يسمع سؤالها، لأنّه حين سمع الإسم الذي نطقت به شعر وكأن ستاراً أسدل بين ماضيه وحاضره. غابت ذكرياته فجأة وأغلق دونها الباب. ولكنّها تابعت: تبدو ضيعتكم كبيرة!

-لا! ليست كبيرة. فيها باستين واسعة، لكن عدد سكانها لا يتجاوز الثلاثة الآف... كلُّنا في هذه الضيعة، خمس عائلات فقط... ولكن، ربما زاد عدد سكّانها قليلاً و... كان يتكلم وحلم تفكّر: عليّ أن أرحل قبل أن أُعرف. ولكن إذا كنت حقاً من هذه الضيعة فلماذا رموني في الميتم؟ لن أسأل أكثر، لا أريد أن أعرف المزيد. ولكنّه تابع: "منذ أكثر من ثلاثين عاماً كنت مختار هذه الضيعة، للمرة الأولى وكان لديّ سجلّ كامل بأسماء كلِّ أبنائها. أمّا الآن فما عدت أعرف الجميع، وبخاصة الجيل الجديد الذي أصبح في الجامعات يتعلّم ولكن كلّهم يخصِّصون قسماً من وقتهم لرعاية وضع الضيعة وتحسينه فهي لنا جميعاً ونعتبرها بيتاً للجميع... تابع كلامه وحلم غارقة في ذاتها تبحث عن أجوبة لأسئلتها المحيّرة.

-16-

انصرف بو جلال وعادت حلم إلى مكانها وهي تردِّد: "ربيع الغيوم! ربيع الغيوم! ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ غداً سأدفع إيجار الشقة إلى بو فارس، وبعدها سأرحل من دون أن يتعرّف عليّ أحد. هل أتركهم ينبذونني مرتين؟ لا! سأرحل إلى مكان آخر". أخذت قرارها وهيّأت كلّ الترتيبات لتنفيذه بسرعة وأوت إلى فراشها كي تستيقظ باكراً. ولكن من أين للنوم أن يأتيها، فهي متيقِّظة مستنفرة.

كانت في مثل هذه الحالة من الاستنفار، بعد سفر معلميها إلى باريس، حين دخل عليها رعد وهي على موعد مع بشّار. دخل عليها ورائحة الكحول تفوح من فمه، طوّقها بذراعيه وعبث بها بعنف كما لو أنه يثأر من رفضها له. مزَّق ثيابها التي كانت تحاول عدم خلعها عن جسدها، عرّى ثدييها أولاً، وضع وجهه بينهما وأخذ ينقّل شفاهه من واحد إلى آخر، ثم يتابع نحو ثغرها وعينيها وشعرها قبل أن يعود إلى حلمتيها .كانت تحاول الإفلات منه، لكنّه كان يشدُّها إليه بعنف وبحركة سريعة رفع عنها ما تبقّى من ثيابها، أسندها إلى الحائط، أمسك بفخذيها وأدخل عضوه فيها، ثم رمى ثغره على ثغرها وكاد يلتهمها حين تجمّد واجتاحته إرتعاشة هزّت كلَّ جسده وأسرعت نبضات قبله. وهي كتمت صوتها الذي لو خرج كان مزيجاً من الألم والرفض معاً.

"انا من يحبُّك" كان يقول لها وهو يرتِّب وضع ثيابه، حين دخل بشّار، وتواجه الأخوان في ظلمة الليل. كانا قايين وهابيل في غرفتها. صرخ رعد: "أخرج يا كلب". وعلا صوت بشّار :"أنت الكلب وأنت من سيخرج". تجمّدت حلم في مكانها ودار بين الأخوين عراك هستيري، تخابطا حتى سال الدم من جسديهما، ولم يهدآ إلّا حين صرخت حلم من الألم وغرقت في غيبوبة سبّبها ارتطام رأسها بمنفضة كان يقذب بها أحدهما الآخر,. وحين خرجت من غيبوبتها رأتهما بالقرب منها ينشّقانها العطر ويسقيانها ماء الزهر وهما يسألانها: هل أنت بخير.

-سأكون بخير، أجابتهما، إذا تصالحتما.

-كما تريدين. لكن نرجوك، لا تخبري والدينا.

فكّرت حلم قليلاً بممارسات والديهما معها وأجابت وهي تبتسم: لن أخبرهما.

وطال غياب الأهل إذ انهما لم يعودا إلاّ بعد أن زالت آثار القتال عن أجساد بشّار ورعد وحلم. "يبدو أنَّ الكتلة الجسدية تتجدّد وتشفى من جروح أصابتها، ولكن هل الكتلة النفسيّة تجدِّد خلاياها وتشفى؟ لا! إنها كلوح الزجّاج، فإن حدث وانكسر فمن غير الممكن أن يعود قطعة واحدة".

-17-

-هل تسمحان بأن أدفع الإيجار اليوم؟

-لماذا العجلة يا أمَّ فادي؟ لا زال الصيف بأوله.

-ما الفرق، قالت وأخرجت المبلغ من جيبها وقدّمته لبو فارس الذي رفض استلامه قبل شفاء ابنها، لكنّها وضعته على الطاولة الصغيرة أمامه وانصرفت.

وهي تصعد الدرج، خطر ببالها خاطرة أضحكتها؛ أدركت أنّها المرة الأولى في حياتها التي تدفع فيها مالاً لأحد، كانت، دائماً، هي من يُدفع لها المال ويُقدَّم لها الهدايا.

بعد عودة الأهل من سفرهم، عاشت حلم في بحبوحة تحسد عليها. أُغدق عليها المال من كل الجهات؛ من معلميها بعد كلّ ليلة حمراء، من ابنهما رعد بعد كلِّ إنفراد قسري بها ومن الزوّار والأصحاب والجيران. "يا إلهي! كنت كالمقبرة لا أرفض أحداً ". قالت لنفسها وهي تفتح باب شقتّها. "هل كنت مرغوبة إلى هذا الحد؟ " تابعت كلامها وهي تدخل غرفتها، "هل كانوا يستغلونني أم كنت، أنا، من يستغلُّهم؟ كانت العملية تستغرق دقائق، بعدها أجدُ نفسي مغمور بالمال والهدايا الثمينة. لكن ذلك الوغد! كم فششت خلقي به!" قالت ذلك بصمت، ثم ضحكت بصوت عالٍ إذ أنها تذكَّرت كيف مارس معها الجنس للمرّة الأولى، وصدمت قبل أن تتعوَّد على شذوذه وتثأر بواسطته من كلِّ الآخرين.

رجلٌ، كامل ملامح الرجولة. جارٌ في الحي وصديق للسيد وجيه. وكما كلُّ الأصدقاء، كان له الحظّ بأن يطلب حلم من معلميها. لم يصطحبها إلى شقتَّه السريَّ، كما كان يفعل بعضهم، بل دعاها إلى فندق فخم حيث كان معروفاً، فرحبّوا به بطريقة تدلُّ على معرفتهم به وعلى كرمه معهم. أخذ منهم مفتاح غرفة، أقفل بابها بعد أن دخلاها وطلب من حلم أن تتعرى، ففعلت، وقبل أن يخلع ثيابه، سحب من جيبه شيئاً، حين أفرده بان كالحبل الجلدي الرفيع، سلّمه إلى حلم، رمى ثيابه، بسرعة، على الأرض وقال:

-"هيا فرجيني قوتك". ضحكت حلم، يومها وحارت بأمرها؛ هل هو كاتش مصارعة أم حفلة مضاجعة كما مع الآخرين؟ لكنّها سمعته يقول: "اضربي، ماذا تنتظرين؟" حاولت حلم أن تضربه بلطف كأنها تداعبه، لكنه أصرّ على الجلد، فامتثلت لأمره. كان كلّما جُلد ازداد اهتياجاً حتى أصبح كالكلب المسعور؛ وقف امامها ثم أدار وجهة جسده نحو النافذة على يمين حلم وصرخ: "هيّا". رفعت حلم السوط وجلدته على مؤخرَّته النافرة وتابعت عملها حتى أصبحت تلك المؤخِّرة حمراء كالدم وعضوه منتصباً بشكل يلامس بطنه. استدار نحوها، أخذ السوط من يدها، فارتعبت وظنّت انه سيمارس الشيء نفسه معها، لكنّه رمى السوط جانباً وقال: الآن عليك أن تداوي بلسانك ما فعلت يداك." وحين سألته: "يعني؟" استدار وانحنى وقال: "بسرعة إفعلي".

انحت وأخذت تمرّغ لسانها على مؤخرته وهو يمسك عضوه ويخضّه، وفجأة قفز بشكل مكَّنه من إداخل عضوه في فمها قبل أن يكون لديها الوقت كي تستقيم. أمسكها بشعرها وهو يضغط على رأسها هي التي حاولت رفعه عبثاً. فأفرغ في فمها وأنسحب منها، وركضت حلم إلى الحمّام تبصق وتتقيَّء وتستفرغ وهو ينظر اليها ويضحك قبل أن يقول: "كان عليك أن تبلعيه كما يفعل غيرك، ألا تعرفين أن مني الرجل هو أحسن علاج لبشرة المرأة؟ ستتعلمين ذلك". ولكن حلم لم تتعلّم، وظلّت دائماً تبصق. ولكنها أتقنت الجلد وأصبحت وهي تجلده ترى نفسها تجلد كلَّ الرجال. ولكنه دفع لها مبلغاً كبيراً من المال. وظلّ يدفع لها الكثير، فالجلد أصبح متعة مشتركة عندهما، ولو لأسباب مختلفة. وعاد ذهنها إلى الحاضر فقالت لنفسها: "لا! ما كنت أبغي المال بقدر ما كنت أبغي إشباع حقدي. كنت أشعر وأنا أجلده أنِّي أثأر لنفسي من كلِّ من يحيط بي ومن كلِّ ممارساتهم. لقد أصبحت، في النهاية جلاّدة ماهرة. كنت أستعمل معه كلَّ قوَّتي".

-18-

"زوجها متوفٍ، الست "لولو" قال بو جلال وهو يقف أمام المرآة يحدّق في وجهه ويتفحصَّه. رشق هذا الوجه بالماء كي ينشّطه، حلق ذقنه، مشَّط شعره. إنه ما زال شاباً ويحقّ له أن يعشق!..."هي تعيش وحدها ولا أظن سترفضني، لستُ عجوزاً جداً... إنها أيقظت كلَّ رجولتي، وهذا يعني أنّي قادر على..." تلمَّس جسده، ضحك، ارتدى ثيابه وسار نحو بيت جاره علّه يلتقيها من جديد.

مكث طويلاً عند جيرانه ولم تأتِ. هل يسأل عنها؟ هل يطلب من أمّ فارس أن تناديها؟ لا! ستبدو القصَّة مفتعلة. أين ستهرب؟ فإن لم تأت اليوم، فهي حتماً

ستأتي غداً أو بعد غد، سأنتظر. ولكنّها لم تأتِ، ضاق صدره، لقد أصبح مع العمر لجوجاً

- شو أمّ فادي ما بيّنت اليوم؟
- بلى، أتت ودفعت الايجار واختفت.
- شو؟ عاجبتك أم فادي يا عجوز النحس؟ قالت أم فارس وهي تضحك.
- بعد بخصلتك، يا جار، قال بو فارس. من أنت وصغير بتحب الحلوات.
- ومين ما بيحبهن ؟ قال بو جلال.
- رحمات الله على أمّ جلال شو عانت منك! كانت تخبّر أم فارس عن فضولك.
- الله يرحمها، لا كانت ترتاح ولا تخليني ارتاح.
- كيف بدّها ترتاح وأنت عيونك كانت لبرّا؟
- والظاهر أنها بعدها لبّرا، أضافت أمّ فارس.
- يا ريت بعد فيّي، ما كنت قصّرت.
- فيك البركة. أنت سيد الشباب.

فرح بو جلال بالاطراء واعتبره صحيحاً، فهو اليوم يشعر بحيويّة غير عاديّة. وحين تأخر الوقت، وقف استودعهما وهو يتباطأ قبل أن ينصرف، فقال له بو فارس:

-سلّتك فاضية اليوم؛ أم فادي مصمّمة تبقى في بيتها.

-19-

يرى المجرم نفسه مسوقاً، دائماً، إلى حيث أجرم!

"هل عدت إلى هذه الضيعة كما يعود المجرم إلى مكان ارتكابه الجريمة؟ وأية جريمة ارتكبت؟ لماذا اخترت هذه البلدة، من دون سواها، هل انسقت بلا وعي إلى حيث يجب أن أكون؟" تراكمت الأسئلة في رأس حلم، فغرقت في ذاتها

ولم تقم بأي عمل، ونسيت النفخ في الناي عند غروب الشمس، لأن غروبها في ذلك اليوم أعادها إلى...

كانت معهما في "اليخت"، والازرق يشكّل كلِّ الفضاء على الرغم من أنّهم كانوا في أواخر شهر تشرين الثاني. تركوا الشاطئ، في تلك العصريّة وأبحروا بإتجاه المعيب، بعد أن أمضوا النهار يقلّبون أجسادهم في الشمس قرب البركة في حديقة بيتهم. وما أن غطس قرص الشمس في الماء، واختفى وارء الأفق~، حتى رفع السيد وجيه زجاجة شمبانيا، وجّه فوهتها نحو السماء وأخذ يدفش بإبهميه الفلّينة التي قفزت في الفضاء كأنّها طلقة رصاص، وفال السائل الأصفر الذي استعجل السيد وجيه وسكبه في كأس من الكريستال النقي وقدّمه إلى حلم. ثم ملأ كأساً ثاني وقدّمها إلى زوجته، ثم ملأ كأساً ثالثة، رفعها وقال: بصحَّتك يا لولو. وهكذا قالت زوجته. رفعت حلم كأسها وشربت من دون أن تعلم ماذا يحدث. ولكن الست عفاف سارعت إلى القول: "ألا تعلمين لماذا هذا الاحتفال؟"

فكّرت حلم قليلاً وهزّت برأسها نفياً وعيناها تسألان. تقدّم السيد وجيه منها، قبّلها وقال: "إنها الذكرى السنويّة الأولى لوجودك معنا. والآن سنعود إلى البيت وسنقيم حفلة حتى الصباح، لقد قمت بكل الترتيبات". فرحت حلم بذاتها وأدركت أن خروجها من الميتم كان في ذلك التاريخ. ولهذا السبب أصبحت، لاحقاً، تعتبر أن هذا التاريخ هو تاريخ تحررّها، تاريخ استقلالها حتى ولو أنّها كانت، أمام بعض أحداث معينة، مرّت بها، تلعن ذلك التاريخ وتقول لنفسها: "هناك أناس غير جيديرين بالحريّة"، ولكنها كانت دائماً تستدرك وتجيب نفسها: "ولكن الحريّة هي أفضل من العبوديّة حتى ولو منحت للمجانين!".

خرجت حلم من ذاكرتها وهي تقول: نعم للمجانين! وهل ما عشته بعد خروجي من الميتم، بعد تحرّري من السجن، سوى جنون؟ واستيقظت في اليوم التالي باكراً لتعوّض ما فاتها أمس من عزف على الناي وهي شاردة في عالمها الماضي.

-20-

في اليوم التّالي سار نحو بيت بو فارس مجدّداً وهو يقول: "ستأتي اليوم حتماً". دخل عليهما كعادته وأخذوا يتحدثون في أمور مختلفة. لكن بو جلال لم يكن معهما كليّاً، وقد نبهّه إلى ذلك بو فارس عدّة مرات. وحين صاح به أخيراً: "شو وين صرت؟" تنحنح بو جلال وقال بكل جديّة: "هل زارتكم؟".

ضحك بو فارس وأجابه: "يبدو أنّك مغروم عن جد يا شيخ، هل بتعجبك أمّ فادي إلى هذا الحد؟"

-بلا غرام. بلا بلّوط، بالي مشغول عليها، ربما أصابها مكروه، لا يجوز ألا نستفقدها. ما رأيك أمّ فارس لو صعدت إليها؟

-رجلاي لا تساعداننني على صعود الدرج، إصعد أنت إذا كنت مهتماً بالأمر.

-لا! إذن ناديها من على المصطبة.

وصرخت العجوز: "يا جارة"، لكن حلم لم تجب، سمعت النداء وظنّت أنهم ينادون سواها، فمكثت في مكانها إلى أن سمعتها من جديد ولكن هذه المرّة كانت تنادي بأعلى صوتها: "أمّ فادي".

-أين أنت، ست أمّ فادي قالت لها العجوز عندما أطلّت حلم من الشرفة.

تلبّكت حلم وقالت: "هنا".

-لم نرك منذ البارحة، هل أنت بخير؟ هل تحتاجين إلى شيء؟ انشغل بالنا عليك.

-لا شكراً. كان لدي بعض الأعمال أقوم بها... سآتي حالاً.

وانتعش قلب بو جلال حين سمع صوتها. كانت زوجته، حيث تحتاج إليها، تقف على شرفة بيتها وتنادي: "ريم" التي كانت تجيبها: "سآتي حالاً".

دخلت بيتهم وشعر بو جلال بالاضطراب حين رآها. ولكنه افتعل البرودة وسلّم عليها بطريقة عاديّة، هو الذي كان يوّد أن يضمها بذراعيه و... هل تتجدّد معها قصتّه مع ريم؟ "لماذا هي بقيت صبيّة وأنا أصبحت عجوزاً؟ تباً لحظي! مع ريم كانت العوائق خارجية؛ زوجها وزوجتي، والآن العوائق ذاتيَّة...".

- ضحك سن بو جلال الآن. كان قلقاً عليك، قالت العجوز.

-لا داعي للقلق، فأنا بخير.

-وابنك؟

-على حاله. قالت ذلك وساد الصمت بينهم وثقل الجو فتابعت حلم: سيتحسن، أنا متأكدّة، وسأعود به إلى بيتنا وهو بكامل صحّته.

-الله يعطيك القوّة لتحقيق كلِّ ما تريدين.

-21-

"قوتك في جمالك وضعفك" . كانا يردّدان على مسمعها في بداية حياتها معهما، حين كانت تحاول أحياناً التمردّ والرفض، ويتابع السيد وجيه: أنت أنثى بكل معنى الكلمة، أنثى إلى أرفع درجات الأنوثة، والدليل، أنّنا نحن الإثنين مغرمان بكِ، فإن حاولت الاستقواء والتمنّع ذبلت وضاع جمالك وأيضاً تحولت إلى مجرد خادمة. انظري كيف أن الكلَّ يشتهونكِ الآن لأنكِ جميلة، وكم كسبت من المال، وستكسبين المزيد لأنك تسايرين الجميع ولا ترفضين أحداً. هذا لا يعني الضعف، كما تفهمين الأشياء بل هو القوّة بيعنها، إذ أن أحداً لا يجسر على معاملتك بقسوة، الكلّ يلاطفونك وهذا يعني أنك تتمتعين بقوة تُحسدين عليها، فلا تحاولي أن تغيّري من شخصيتّكِ."

"هل كان يعلم السيد وجيه وزوجته الكريمة ماذا يعني كلامهما؟ بالتأكيد لا". فحياتهما أصبحت شبه كرنفال دائم وبيتهما تحوّل إلى موطئ قَدم لكل أصناف الضيوف والزوّار ومحط أنظار كلِّ الحسَّاد من الجيران والمعارف. وتحولتْ حلم إلى "ست" بكل معنى الكلمة لأنّ المال كان المحدّد الوحيد للمكانة الاجتماعية وشعرتْ أنّها مركز اللعبة كلّها. ولكنها كانت كلّ ما انسحب منها رجُلٌ ما تشعر بالمهانة والذلّ. وهذا الشعور كان يتبخّر بسرعة أمام ما كان يغدق عليها من مال وإطراء. وكانت تردِّد في داخلها: "هل القوَّة التي يتكلّم علها السيد وجيه تعني ان لا نشعر بالذلّ، هل إن "العزّ" الظاهري كفيلٌ بالغاء ذلك الشعور الداخلي، أو تلك الوقفة أمام الذات ومواجهتها؟".

"نعم" قالت حلم لذاتها وهي تقوم بترتيب وضع ابنها بعد أن عزفت له على الناي مع شروق الشمس. نعم. ما كنت أشعر به من مهانة في البداية تبخّر مع الوقت وأصبحت حياتي قائمة على القشور الخارجية التي كانت مغرية جداً، ولكنها قشور، قشور مبنيّة على أرضيّة ضعف واستستلام، قشور ما كنتُ أعرف أنها معرّضة للانهيار أمام أصغر التحدّيات. يبدو أن الاستهتار "المزدهر"، أو "الازدهار المستهتر" يتهافت بسرعة أمام التحديّات. بل هو الأكثر قابليّة لاستدراج التحديّات. كم علّمتني الأيام! حين أتى إلينا غوّار، استقبلناه، بل رحبّنا به، وكيف لا نرحّب به ولا نحضنه وهو الذي طُرِد من بيته ولم يقبل به أحد من الأقارب؟ كيف لا نساعده على إستعادة ماكان له واغتُصب؟ ضحكت حلم وقالت: "كيف تنقلب الأيام! وكيف للضيف، مهما كان قريباً وأخاً أن يستقوي على مستضيفيه!".

وأهل البيت كانوا يعرفون غوار، فهو ابن الحي، ووالداه كانا يملكان بيتاً مجاوراً لبيت السيد وجيه، ولكنهما ماتا وهو طفل وأصبح، بو داوود، عمه، وصياً عليه. وبفعل الوصاية تلك أبعده عن البيت، سفّره إلى الخارج كي يتابع دروسه. وحين عاد يحمل شهادة في الهندسة، كان بو داوود، قد لعب لعبته وكتب البيت بإسمه، ولم يعترف بحقوق غوار الذي، وبعد أن علم بالامر وحاول استعادة بيته عبثاً، طاف على أقاربه يطلب منهم المساعدة. رفضوه ورفضوا مساعدته ولكنهم نصحوه باللجوء إلى بيت السيد وجيه، ذلك البيت المعروف بضيافته والذي لم يسبق لأصحابه أن أغلقوا الباب بوجه أحد.

طلقات نار غزير، أخرجتها من شرودها وقفزت من ذاكرتها صورة تلك الليلة المجنونة ورأت غوار، وهو يشهر مسدّسهُ "الوهمي" في وجه رعد وأبيه ورأت القصر يحترق. ذُعرت وركضت الى الشرفة تنادي أمّ فارس لتعرف ماذا يجري.

-لا تخافي، أمّ فادي، إنه عرس. ألا تسمعين الزغاريد؟ هذه عادتنا هنا في الضيعة.

هدأت حلم وعادت إلى الداخل ولكن جسدها الذي ما زال يرتعش أيقظ كلّ ذاكرتها التي كانت تحاول دائماً أن تنساها.

قالت له الست عفاف بعد أن استمعت إلى قصته:

-أنت الآن يا غوّار في بيتك. سنفرد لك جناحاً خاصاً، أرجوكك أن تتصرّف كأنك واحد منا.

رحّب بشّار بكلام أمِّه وشكرها غوّار ولاذ رعد وأبوه الصمت. وحلم كانت كانت تصغي وتقول في داخلها:" عليّ أن أتحمّل زبوناً جديداً ".

أصبح غوّار من أهل البيت، له رأيه وكلمته في كلِّ ما يحدث، ولن أكثر من ذلك؛ عطف الست عفاف وصداقة بشَّار اللذين أصبحا يراعيانه في كلّ اقتراحاته وينتصران له في كلِّ تصرُّفاته. اعتبر بشار أن قضيّة غوّار هي قضيّته. وأُغرِمت الست عفاف برجول غوّار، وهكذا اتفقا، بل تواطآ على حماية ضيفهما الجديد وحضنه، كلّ واحد منهما من منطقه الخاص. فما كان أمام السيد وجيه وابنه رعد إلا المسايرة والانتظار. أما حلم فما كان لها رأي في الموضوع، كانت تعتبر نفسها للجميع وتساير الجميع.

ورويداً رويداً أصبح غوّار، الذي انهمرت عليه الأموال من أقاربه الذين طردوه من بيوتهم سابقا، كأنهم يكفّرون عن ذنب ارتكبوه، أو كأنهم يريدون له الاستمرار بالبقاء حيث هو، أصبح ذا نفوذٍ في بيت السيد وجيه، وأول عمل قام به بعد أن استقّر وضعه، هو حيازته على مسدَّس بحجّة الدفاع عن النفس.

"أصبح يملي شروطه عليّ وعلى الست عفاف التي استبدلت زوجها به في علاقاتها الجنسية معي. أصبح غوّار هو الذي يدخل علينا ويمارس معنا ما كان السيد وجيه يمارسه سابقاً ".

حين عاد ذلك اليوم، يتدلّى من خصره مسدّس، صمت الجميع وفرحت الست عفاف التي كانت شخصيّتها متناقضة إذ أنها كانت تُغرم بالأنوثة المفرطة المتمثِّلة بحلم، وبالرجولة المفرطة المتمثِّلة بغوّار والتي ثَّبتها السلاح. فرحت لأنّ السيد وجيه أصبح ينفر منها، وكيف لا يفعل؟ فإن هو قبِل في السابق أن تُغرم بحلم فهو لن يقبل إطلاقاً أن تُغرم بغوّار؛ حلم لا تشكّل مساساً لرجولته أما غوّار! فقد شعر به وكأنه يسحب البساط من تحت قدميه، وما كان ينغّصه أكثر هو أن بشّار، ابنه، انتصر لغوّار. هل يشجِّع الإنقسام بين الاخوة؟ هل يعكس عليهما ابتعاده وانزعاجه من زوجته؟ هل يخبرهما بحقيقة الأمر؟ حاول الكثير كي يحافظ على هدوء اعصابه، وحاولت حلم الكثير كي ترضي الجميع ولكنّ الأمور سارت إلى المزيد من السوء وإلى التزايد من...

-22-

طُرِق الباب.

-أنا أم سبع، أخت أم فارس، أتيتُ لزيارتهم ولم أجدهم فهل هما عندكِ؟

-لا. تفضلي ادخلي.

-شكراً. إنهما في العرس حتماً. سألحق بهما.

أمّ سبع أخت أمّ فارس طرقت الباب ولم تدخل، أما أم سبع، جارة الست عفاف والسيد وجيه، فلم تطرق الباب حين دخلت مع أولادها؛ دخلت بدعوة من السيد وجيه، الذي دعا الحي بكامله إلى تلك السهرة.

أراد السيد وجيه، في تلك السنة، أن يحتفل بعيد ميلاده. وبعد التشاور مع زوجته وابنيه وحلم وغوار، قرّر أن يقيم حفلة تنكرية ويوجه دعوة مفتوحة إلى كلّ

الأصحاب والمعارف والجيران. "سأملأ بركة السباحة بالوسكي... وسأكسو أغصان أشجار الحديقة بالقريدس... وسآتي بأكبر فرقة موسيقية و... ستكون سهرة الموسم وكلّ المواسم" قال لزوجته التى أجابته وهي تمزح: "وسأنزل، معك. في منتصف الليل إلى البركة و..." وقاطعها قائلاً: "لا! في منتصف الليل، سأطفئ الأنوار في البيت وفي الحديقة وسأشعل الوسكي في البركة وسنتابع السهر على أنوار اللهب الذي سيلحق السماء".

ضحك الجميع يومها، وارتعبت حلم من هذا الفحش، "خوفي كان صحيحاص، فما حصل، تلك الليلة، لم يتصوّره عقل. لست أذكر كيف تمّت التحضيرات. كلّ ما أذكره هو أن بيت السيد وجيه، في اليوم المحدد، يوم السهرة المجنونة، تحول إلى برج بابل؛ أتي عدد من الأشخاص، باكراً وزينو البيت بكل أصناف الزهور والشتل، تبعهم آخرون، ركزوا طاولات حول البركة وفي كل كلّ أنحاء الحديقة والصالونات، وتبعهم آخرون يحملون أطباق الطعام التي لا تحصى، وتبعهم آخرون يحملون براميل من المشروب، وحين رآهم السيد وجيه، أمر بإفراغ البركة من الماء وبتنظيفها جيداً". وسألته حلم إن كان حقاً، سيفذ ما قاله سابقاً، فإبتسم وأجابها بأنه سيفعل. "وتبعهم آخرون يحملون الفواكه والحلويات، وتبعهم آخرون وركزوا آلاتهم الموسيقية على منصة حضّرت لذلك، وتبعهم آخرون وآخرون، أناس يدخلون، أناس يخرجون إلى أن تحول البيت وحديقته إلى جنة فعلاً". وقبل الموعد بقليل، نفّذ السيد وجيه رغبته وأفرغت براميل الوسكي في البركة وحلم تنظر مدهوشة إلى السائل الأصفر الذي كان يعلو رويداً رويداً إلى أن وصل إلى الحافة وتحوّلت البركة إلى لوح من الذهب يعكس كلّ أنوار الحديقة، وتنفَّس السيد وجيه الصعداء وضمّ حلم إليه وقال:" ستكون ليلة العمر يا لولو... هيا ارتدي الفستان الذي قدّمته إليك البارحة. ستكونين أميرة هذه السهرة".

-23-

"جئت إلى هذه الضيعة لكي أنسى، فما بها الذكريات تغتالني؟" يبدو أن الإنسان لا يستطيع الهروب من ماضيه مهما تنكّر له ومهما حاول نسيانه. فما حدث مرة في حياة الانسان، لا يمكن إلغاؤه، فهو يخبو لفترة، ولكنه، لا بدَّ، عائد في أية مناسبة تستدعيه، وبقدر ما يحاول المرء، النسيان، بقدر ما تطغي أحداث الماضي على الحاضر، تطغي وتستبدّ بصاحبها حين يكون حاضره فارغاً. وحاضر حلم لا يملأه سوى الانتظار وتباطؤ مرور الزمن.

نفضت عن رأسها الذكريات وصور الأيام الماضية وخرجت إلى الشرفة علّها تجد في فضاء القرية ما يخرجها من ذاتها.

بيوت، تلّة العلّيق، فارغة، اليوم من أهلها. كلّهم تجمَّعوا في بيت العريش حيث الدبكة والرقص والزغاريد واطلاق النار ابتهاجاً وبطراً. "إلى أي دين ينتمي أهل هذه الضيعة؟" تساءلت حلم. ولأول مرة لاحظت بين البيوت مأذنة وقبالتها قبّة كنيسة وجرس.

"لم أسمع، حتى الآن، قرع جرس ولا صوت مؤذن، فما السرُّ في ذلك؟ هل أهل هذه الضيعة غير مؤمنين؟ ولكن ماذا يعني وجود هذه الكنيسة وهذا الجامع إذاً؟"

كانت الشمس تميل إلى الغروب، دخلت حلم إلى غرفة ابنها وغزفت على الناي طويلاً وهي مطمئنّة أن لا أحد يسمعها. عزفت وطلبت من ربّها أن يستجيب لها، لكنه كعادته، لم يستجب. "ربّما هجر الله أيضاً، هذه الضيعة كما هجرها كاهنها وشيخها مخلفّين وراءهما كنيسة لا يُقرع جرسها وجامعاً لا تدعو مأذنته الناس إلى الصلاة!".

حين عادت إلى الشرفة رأتهم: أم فارس وبو فارس برفقة بو جلال. مرّوا أمام بيت هذا الأخير وتوّقفّوا لدقائق، وسمعت بو فارس يقول: "تفضّل معنا، بو جلال، لا زال الوقت باكراً ".

-لا شكراً، أفضِّل...

وقبل أن ينهي كلامه، رأى حلم على شرفة بيتها فتابع: "كنت أفضِّل البقاء في البيت، ولكن، كما قلت أنت، الوقت لا زال باكراً وسأضجر حتماً وحدي".

ابتسم بو فارس لأنه فهم كلّ دوافع صاحبه. لوَّح بيده إلى حلم من بعيد داعياً إيّاها إلى النزول، وتابعوا سيرهم.

-كيف كان العرس؟ سألت حلم حين أصبحوا أمام بيت بو فارس.

-ممتاز كالعادة. ولكنّ تفضّلي كي نخبرك عن عنتريّات بو جلال في هذا العرس.

لم يكن همُّ حلم عنتريّات بو جلال. كان هدفها أن تعرف ما سرّ سكوت الجامع والكنيسة في تلك الضيعة. لبَّت الدعوة مصمِّمة على طرح السؤال الذي

حيَّرها. ولكن إذا سألوها عن دينها فبماذا تجيب؟ ولماذا لا يوجد إشارة بخصوص هذا الموضوع على تذكرة هويتها؟

لم تعلم حلم ما كان دين معلّميها إلا بعد فترة طويلة؛ بعد أن تصارع الأخوان في غرفتها وأخفت عن الأهل ذلك الأمر. لكنها، بعد عودتهما، لاحظت أن الست عفاف تحم في عنقها سلسالاً ذهبياً يتدلّى منه رمز ديني معيّن. وهي تمارس الجنس، مرَّة، مع السيد وجيه، رأت، حيث خلع ثيابه، أن رمزاً دينياً مختلفاً عن الذي رأته في عنق الست عفاف، معلقاً بقميصه الداخلي، أدركت، في تلك اللحظة، أنّهما ينتميان إلى دينين مختلفين.

"وإن سألوني عن ديني! من الأفضل ألا أفتح هذا الموضوع الآن، فحين أكتشف إلى أي دين ينتمي أصحاب البيت، أصنّف نفسي بينهم وينتهي الأمر".

-لو ذهبتِ معنا لكنتِ رأيتِ الشيخ بو جلال وهو يدكُّ الأرض برجليه، لم يترك حلقة الدبكة لحظة واحدة، كأنه شاب في العشرين من عمره. والله يا بو جلال ما لبقت المخترة إلا إلك!

ضحكت حلم لسماعها هذا القول، ونظرت إلى بو جلال الذي تجلّس في مقعده وهو يحاول إخفاء ابتسامته. فتابع بو فارس:

-لازم ترجع مختار يا بو جلال.

-مش دورنا هالمرّة، بتعرف إنت.

-صحيح هالمرّة، المخترة لبيت الرّامي وبعد منها بترجع لعيلتكم.

"بيت الرامي" قالت حلم لذاتها وتساءلت "هل سمعت حقيقة كلمة "رامي" وكيف لي أن أتأكد؟".

-ألا تنتخبون المختار في هذه الضيعة؟

-لشو الانتخابات؟ كلّنا خمس عائلات. كلّ عائلة تستلم المخترة لمدّة سنتين وينتهي الموضوع بلا مشاكل. اتفقنا على ذلك منذ زمن بعيد وحافظنا على اتفاقنا. المهّم أن تختار كلُّ عائلة مرشّحها، وكلُّ الضيعة تؤيّد هذا الاختيار، والانتخابات تكون محض شكليّة. وحتى الآن كلّ مختار أتى، كان فيه الخير والبركة. هذه السنة دور بيت الرّامي وكلّنا مع بيت الرّامي في اختيارهم لمن يريدون.

تأكدت حلم من الإسم، وراودها شكّ حول إسم العائلة المدّون على تذكرة هويتها، ربّما كان "الرّامي" ربما كانت هي "حلم الرامي"، تشجعت وسألت:

-وما هي أسماء العائلات الأخرى؟

عدَّد بو جلال أسماء العائلات، مشيراً إلى عائلته وعائلة بو فارس ولم يتلفّظ بالاسم الذي كانت حلم تنتظره، ولكنها لاحظت أن الأسماء تدلُّ على أديان مختلفة، فتذكّرت ما فكّرت به وهي على شرفة بيتها حول صمت جرس الكنيسة ومأذنة الجامع. هل تسأل؟ وكيف سيكون وقع سؤالها عليهم؟ ستنتظر اللحظة المناسبة.

-الكنيسة كانت تجعُّ بالناس، يبدو أن أهل الضيعة عادوا للاصطياف، قالت أم فارس. ورأت حلم في قولها مناسبة فسألت:

-ألا يقرع جرس الكنيسة في مثل هذه المناسبات؟

-لا! أجابت أم فارس بلا مبالاة. ولكن بو جلال تحمّس للسؤال وأسهب في الشرح:

-نحن هنا، يا ست أم فادي، نعيش على البرَكَة، وننبذ كلّ ما من شأنه أن يفرّق بيننا. تنتمي عائلاتنا إلى دينين مختلفين: المسيحية والاسلام، وبالحقيقة ليسا مختلفين فكلاهما يؤمن بإله واحد. ويجود في ضيعتنا كنيسة وجامع، ولكنا اتفقنا أن الدّين لله إذ أنه علاقة بين الفرد وربّه ولا دخل لأحد آخر بهذه العلاقة، فكلّ إنسان هو حرّ في أن يمارس أو لا يمارس طقوس دينه، المهم أن نبقى متّفقين والا يفرّق بيننا شيء على الاطلاق. ولهذا السبب، واحتراماً لمبدأ إن كلّ فرد حرّ في معتقداته، الغينا قرع الجرس كي لا نفرضه على أحد كما ألغينا الآذان كي لا نفرضه على أحد. وتابع: لا تعتقدي أننا كفّار، لا! فنحن نصلّي أكثر من غيرنا ولكن من دون مراسم ومظاهر. وبعد صمت قصير تابع وكأنه شعر بأنه لم يفضِ بكلّ ما عنده: "الدين معاملة. فلا سرقة ولا قتل ولا أية شائنة ترتكب في ضيعتنا، كلّ الضيع حولنا مرّت بظروف صعبة وتقاتل أهلها في ما بينهم وهجر بعهضهم وخربت بيوتهم إلا نحن، فقد حافظنا على وحدتنا ومنعنا أن يتدخّل أحدٌ في شؤوننا، والحمدلله لقد سلمت ضيعتنا وسلمنا. والآن كلنا ندخل الكنيسة وكلنا ندخل الجامع في كلّ المناسبات، والغريب، لا يستطيع أن يميّز بيننا أو أن يعرف ما هو دين كلّ واحد منا. ثم توجَّه إلى بو فارس وتابع: هل تذكل انت حادثة واحدة وأردف، طبعاً، غير تلك الحادثة الرهيبة التي كانت خارجة عن إرادتنا؟ إنها حادث القتل الوحيد الذي أذكره أنا.

لم تنتبه حلم إلى كلامه الأخير، كانت تفكّر هل سيسألونها عن دينها وكيف ستجيب إذا سؤلت، لكنهم لم يسألوها وكان ذلك دليلاً واضحاً لديها على صحّة ما سمعته من بو جلال.

-ادام الله وفاقكم. قالت، لكي توقف بو جلال عن الحديث لأنها كانت تريد الانصراف والتأكد من إسم العائلة على تذكرة هويتها.

-24-

إسم العائلة مكتوب بدقّة ووضوح، إنه غير كلّ الأسماء التي عدّدها بو جلال. فإن كانت حقاً من هذه الضيعة كما تشير الى ذلك تذكرة هويتها، فأين عائلتها إذن؟ ربما كانت أمها من هذه الضيعة وقد تزوجت غريباً، ضحكت حلم حين سمعت نفسها تطرح هذا الافتراض إذ أنّه من المفروض أن تسجل في ضيعة أبيها.

ولكن المعلومات التي لديها تشير إلى أن أمها وأباها ينتميان إلى عائلة واحدة. هل أنجباها من دون زواج ورمياها في هذه الضيعة خوفاً من الفضيحة. أم إنهما سكنا تلك الضيعة حيث ولدتها أمها ثم رحلا؟ ولماذا تركاها هنا وأين ذهبا؟ هل ماتا؟ "وأصبحت أنا يتيمة فأرسلني أهالي هذه الضيعة إلى الميتم؟" حارت حلم في أمرها وكرّت في رأسها كلّ الاحتمالات الممكنة من دون أن تجد احتمالاً واحداً مقنعاً، إلا هذا الاحتمال الأخير الذي توّقفت عنده فتبنّته كي ترتاح وتخرج من قلقها:" ربما كان في بلادنا، ضيعتان تحملان الاسم نفسه!" ارتاحت فعلاً حين توصلت إلى هذا الحل وقرّرت البقاء حيث هي. ولكن هذا القرار كان يحتاج إلى تبرير إضافي؛ إلى أين ستذهب إن تركت هذه الضيعة، هل تعود إلى حيث ذلك الرجل الذي ابتزها بأكثر مما تتحمّل؟ هل تعود لتراه يفرض نفسه على كلّ من عرفت؟ ولكن إذا احتاجت المال فماذا ستفعل وابنها على حاله؟ "سأشتغل! ولو احتاج الأمر سأشتغل في البيوت كخادمة" سأفعل، لن أعود! وهل أعود لأراه يسرح ويمرح، على هواه، في بيت فادي، بعد أن امتلكه من السيد وجيه، بل استولى عليه بواسطة تلك اللعبة الدنيئة؟"

ولكنّه كيف أتى من أين؟ "لم أره إلا مرّة واحدة، في تلك السهرة حيث كان الجميع في حالة سكر لم تمكنهم من الانتباه اليه. دخل مع أحد الضباط وكان يرتدي ثياباً بدوية ولا يضع قناعاً على وجهه؛ قامة ضخمة تدلُّ على رجولته ونظرات هادئة تنمُّ عن اكتفائه وامتلائه بذاته، وربما تدلُّ على عقد نقص غير واعية. نظر إليّ من بعد وهو يتكلّم مع الضابط، لم يقترب مني، يومها، ولست أدري كيف اختفى ولم أعد أراه إلا في آخر السهرة وهو يهرب إلى بيت الست أمّ سبع حيث علا لهب النار من البركة ودبّت الفوضى في نفوس المدعوين وفي أجسادهم. يا إلهي! ما الذي حدث وكيف لي أن استعيد ما حصل تلك الليلة؟"

"بعد أن فاحت رائحة الوسكي في أرجاء الحديقة، دخلت غرفتي، سرّحت شعري وارتديت ذلك الزي التراثي الأزرق، بعد أن استحممت وتعطرت. وحين سمعت صوت السيد وجيه يقول:"هيّا لقد تأخرنا"، خرجت من غرفتي بعد أن القيت نظرة أخيرة على المرآة وركزّت الطنطور جيداً على رأسي ووضعت القناع على وجهي. كانت الست عفاف متنكرة بزي أرستقراطيات بلاط لويس الرابع عشر كما قال لي بشّار، نظرت اليّ وابتسمت ثم اقتربت منّي وقالت: "ستكونين لي وحدي هذه الليلة". ودنا مني السيد وجيه الذي كان يرتدي السروال المقصّب ويضع على رأسه لبادة، وبعد أن أعرب عن دهشته واعجابه بجمالي قال: "انت، الليلة، لي وحدي". وسمعه رعد الذي كان متلبساً شخصية هتلر، وهزّ برأسه استياءً. أما بشّار فكان مع غوّار يتمشيان في الحديقة؛ غوّار بالزي العربي القديم وبشّار بلباسه العادي ولكنه كان يضع على وجهه قناعاً يخفي عينيه فقط. حين رأياني اقتربا ومدّ بشّار يده إلى سلة زهور أخذ منها وردة حمراء وقدمها لي، فقال غوّار: "ما هذه الحركات الصبيانية؟" وقهقه رعد وقال: "حلم تستحق أكثر من ذلك". لكني أخذت الوردة من يد بشّار وأفهمته بأني لا أبالي لأقوالهما. وأحسست أن الجو متوتر وأن عليّ أن أتصرف بشكلّ لا يوقظ غيرة أحدهم".

وبدأ الضيوف المقنعون بتوافدون ويقدمون الهدايا الى السيد وجيه وأخذت المقاعد تمتلئ والضجة تعلو والحركة تزداد والكاسات تدور. وانطلقت الموسيقى تقذفها مكبرات الصوت الى كلّ أرجاء العاصمة. والست عفاف تتنقّل من طاولة إلى طاولة وهي ترحّب بالمدعوين وتحاول التعرف إليهم من وراء أقنعتهم، وأحياناً تسأل حلم عن فلان أو فلانة.

"ما كنت أعرفهم كلّهم، أظن أن الذين أتوا إلى السهرة لم يكونوا كلّهم من معارف السيد وجيه، من المؤكد أن كثيرين أتوا من دون دعوة وإلا كيف اكتظ البيت والحديقة بكلّ هذا العدد؟ حين نظرت إليهم من بعيد تخيلت أن العالم كلّه قد تجمَّع، تلك الليلة، لأن الضيوف كانوا قد تفننّوا جداً بأقنعتهم، حيث ان الناظر إليهم يعتقد أن كلّ شخصيات العالم كانت موجودة في تلك السهرة، من الرئيس الاميركي إلى الرئيس السوفياتي إلى الرئيس الفرنسي مروراً بكل الملوك والرؤساء العرب إلى...، لا أظن أن شخية سياسية معروفة غابت عن ذلك المهرجان، وكلهم سكروا وعربدوا وشاركوا في ما حدث قبل أن يتفرّقوا تاركين أهل البيت لذهولهم وجراحهم".

وأخيراً اكتمل النصاب بوصول وفدين، أحدهما مؤلف من راهبة بثياب بيضاء يتبعها عدد من الرهبان بلباس اسود وقلنسوات سوداوات، والثاني مؤلف من قائد عسكري كبير تملأ سترته النياشين والاوسمة، تتبعه فرقة من الضباط

الاناث برتب مختلفة، يتدلى من خصر كلّ منهن مسدس كبير وملوَّن كلعب الأطفال.

إستقبل السيد وجيه الجميع وقبلّهم من دون أن يعرفهم، وحتى ولو عرف أحدهم، تجاهله لأن قانون السهرة يقتضي ذلك.

"وشربتُ، تلك الليلة حتى ضاع صوابي، وأذكر الآن أنّ السيد وجيه كان يرفعني من خصري ويدور بي كالمجنون قبل أن يعيدني إلى الأرض ويستلمني غيره وغيره. وحين رفعني غوّار بين ذراعيه وهي متمتع بالسكر، صرخ: " أنت، يا حلم، لي، لن أسمح لسواي أن يقترب منك". قال ذلك وحاول الهرب بي إلى أحد الأجنحة التي كانت تعج بالمخمورين الذين يمارسون كلّ أنواع المداعبات و... فما كان من القائد العسكري إلا أنّ رفع صوته وقال: "لا! لن تكون حلم لأحد هذه الليلة، وأنا مع فرقتي سنراقب الأمر وإلا خرّبت الحفلة". وبلحظة تجمّع الضباط حول القائد وضحك الجميع لأن المسرحية كانت تبدو ناجحة.

"بعد ذلك ما عدت أذكر كيف انتقلت إلى غرفتي وكيف دخل عليّ عدد من الرجال والنساء ومارسوا معي كلّ أنواع العلاقات التي كنت أعرفها والتي لا أعرفها وحاولت الدخول في جوّ المسرحية وسألت عن المراقبة التي تكلّم عليها القائد العسكري بصوته الجهوري، وأجابني السيد وجيه الذي دخل عليّ أخيراً وقال وهو يفترعني كالحيوان: "كل شيء مدبّر، والفرقة العسكرية تؤمّن الحراسة بشكلّ جيّد ولم تسمح إلا لي بإمتلاكك، لقد طلبت منهم ذلك، أغريتهم بالمال ووافقوا، لأنهم يلعبون دور الحارس الأمين؛ لقد أبعدوا الجميع عن باب غرفتك كي لا يراني أحد. إنهم حقاً طيبون وستكونين لي وحدي هذه الليلة، سأدفع لهم ما يريدون". وهذا الكلام سمعته حلم من كلّ واحد دخل عليها. ولكن المسرحية تعطلت حين سمعت رعد يصيح بأعلا صوته: " يا كلب، استغللت فترة انشغال الحراس كي تنقضَّ على حلم؟" " لم يكن بشّار منقضاً عليّ، كان يحاول أن يعبِّر لي عن حبه ولكنه لم يجرؤ على القول إنه دفع لهم، فهو بذلك قد يفضح قوانين اللعبة. ولكن لماذا سمحوا بدخول الأخوين معاً إلى غرفتي. هل كان الأمر مقصوداً؟ ومن هم هؤلاء الذين نصّبوا أنفسهم حماة الساحة؟ ولماذا اختاروا لأنفسهم هذا الدور في تلك السهرة؟ ولكن الأمر لم ينته عند المشادَّة الكلامية بين الاخوين بل توتّر الجوّ وحضر القائد مع فرقته وتجمع عدد من المتنكرين لحسم الشجار بين رعد وبشّار وكادت السهرة أن تفقد طابعها، فسحب الضابط مسدساتهم وأطلقوا النار، وإذا بأسهم نارية ملونة تضيء كل أرجاء الحي. وهكذا إنتهى الفصل الأول من المسرحية بالهرج والضحك الهستيري لأن المشروب كان قد

فعل فعله وأفقد الضحكة لونها الطبيعي، كما حوّل كلّ السلوكات البشرية إلى نوع من إشباع الغرائز المنفلتة".

"ضحكت في ذلك الحين، ولم أكن مطمئنة كليّاً، فسير الأمور كان ينبئ بالسوء. ولكني خرجت من غرفتي وتابعت دوري من دون قناع لأن الجميع اكتشف أمري، ورأيتهم يتراكضون نحو القائد وفرقته ويطلبون منهم مسدسات مثل التي يحملونها، ووافق القائد على طلباتهم وأصبح كلّ ضيف مهما كان زيه، يحمل مسدساً ملوناً على خصره. وإتفقوا أن ينهوا السهرة بإطلاق الاسهم النارية من كلّ المسدسات دفعة واحدة".

-25-

ومثلت أمام حلم صورة ذلك البيت الفخم حين دخلته للمرة الأولى ودهشت بجماله وجمال حديقته وتبعتها صورة دماره وقارنت بين الصورتين واستنتجت :" من يزرع الريح يحصد العاصفة. لقد حصدوا العاصفة فعلاً، لا، بل حصدتهم العاصفة ودمّرت بيتهم وكادت تدمّرني قبل أن أتخذ قراري وألملم شتات ذاتي وأهرب محاولة الانقاذ، إنقاذ ما تبقّى منّي بعد كلّ ما عشته من ويلات في تلك الأجواء المجنونة."

غابت الشمس، وأخذت حلم الناي وعزفت، ثم بكت وقالت تخاطب ابنها الذي لا يسمعها: كنتَ قراري الوحيد فلماذا أحرم منك؟ هل هو قدري أن أعيش بلا قرار، لا موقف؟ عشت الانقياد والضعف والليونة والمسايرة، فسقطت إلى أدنى درجات السقوط. حاولت إنتشال ذاتي فطُعنت بالصميم. لماذا انتقلبت السيارة في ذلك اليوم، ما هذه الصدمة التي كانت أن تعيدني إلى سابق ممارساتي؟ لا! لن أعود إلى ما كنت عليه وإن حرمني الله إبني، لن أعيش بعده ولتنتهي هذه النبتة التي أفرزتها الطبيعة لا ندري لماذا. يبدو أن وجودي كان بالغلط، وعلى هذا الغلط أن يتصحّح. فإن كنت من هذه الضيعة حقاً سأعود إلى ترابها ويعود فادي إلى ترابها معي... لم تكتمل فكرتها، فهي ترفض رفضاً باتاً أن يموت إبنها، هي ترفض مجرد التفكير بإمكانية فقدانه، لأن الفكرة هذه ترميها في فراغ لا قاع له هي التي حرقت كلّ السفن وراءها. "حرقتها وليست نادمة ولو خيّرت من جديد لحرقتها ثانية، لن أفكر بالماضي فكلّه سواد والتفكير به يحوّل حاضري إلى سواد قاتم ويحبطني، لا! لن أحبط، فعليّ أن أقوى وأن أمدَّ فادي بالحاية. ليته يخرج من غيبوبته وينعم بهدوء هذه الضيعة ويعيش بين أهلها الطيبين!" وعاد إلى ذهنها كلام بو جلال حول توافق أهل الضيعة وترابطهم. "سأتعرف إلى هؤلاء الناس أكثر، سأندمج بهم وأمهّد هكذا الطريق إلى قبولهم لإبني فادي، بينهم، لاحقاً".

-26-

فتحت الباب وإذا بحنّا ومعه إمرأة. "جئت أعرِّف زوجتي بك، هل تسمحين لنا بالدخول".

-أهلاً بكما تفضّلا. أجابت حلم وهي تبتسم لهما. أود أن تأتيا دائماً.

وبعد أن سألها عن ابنها، استلمت زوجته الكلام ورحَّبت بحلم في الضيعة ودعتها إلى منزلهما. لكن حلم اعتذرت بسبب وضع ابنها الذي لا تستطيع أن تتركه وحده. تفهَّمت زوجة حنّا وضعها وأجابتها بكلمات مؤاسية، تابعت بعدها: "نحن سنزورك فهل من إزعاج في ذلك؟

-على العكس، فأنا سأفرح بكم جداً. سارعت حلم إلى القول، هي التي قرّرت منذ لحظات أن تتعرّف أكثر على أهل هذه الضيعة.

أصبح الزوّار من أهالي "تلّة العلّيق" يتوافدون إلى بيت أم فادي. ولأهل القرى عادات جميلة. كلّ زائر كان يحمل معه هديّة هي من نتاج أرضه. فمنهم من حمل البندورة البلدية ومنهم من حمل التين ومنهم من حمل العنب ومنهم من حمل التوت الشامي... كانت حلم تستقبلهم بفرح وتشكرهم. لم تكن كاذبة في فرحها هذا ولم تصطنع، مرّة واحدة، الابتسامة التي ترتسم بطريقة عفوية على وجهها حين يأتيها أحدهم. كانت حقاً مسرورة لأنهم أخرجوها من دوامة العودة الى ماضيها وأصبحت تفكّر بهم وبكيفية رد الجميل لهم هي التي عوّدتها الأيام وحياتها السابقة أن لكل شيء ثمن. ولكنها فوجئت بأنهم يرفضون حتى كلمات الشكر. وفي كلّ مرة كانت حلم تتذكَّر ردَّة فعل حنّا عندما حاولت إعطاءه المال، وكانت تردّد في داخلها: "صحيح أن أهالي هذه الضيعة يهتمون بالعلاقات الانسانية السليمة لا بالمنفعة المادية، إنّهم لا يعرفون معنى التجارة والمبادلة التي تعودت عليها كلّ حياتي. هل انهم من طينة غير طينة أولئك الأوغاد الذين رماني الدهر بينهم والذين دمّروا شبابي وكلّ عمري ورموني في دوّامة لم أخرج منها إلا حين كدت أتلاشى وأنتهي؟"

كلّما غاصت حلم في علاقاتها الجديدة، كانت لا تستطيع الفرار مما يدور في رأسها من مقارانات بين حاضرها هذا وماضيها القريب. "ما هذا الكابوس الذي سيرافقني من كلّ خطوة أقوم بها؟ ألا يكفي ما عشته مرة؟ لماذا يطاردني كخيالي؟ هل لأندم على ما قمت به أو بالأحرى على ما أرغمت على القيام به؟ وما نفع الندم؟ فما حصل قد حصل وانتهى الموضوع، لا أستطيع تغييره. لماذا كلّما قلبنا

صفحة في حياتنا تحوّلت هذه الصفحات إلى كتاب؟ ليتني أنا التي أصيبت في ذلك اليوم، ربما كنت فقدت ذاكرتي. لماذا أصيب فادي؟ هل لأكفر بمعاناتي معه عن كلّ ممارساتي الماضية؟ وما ذنبه هو يا الله؟ إنه إبن نيّة طيبّة، إن الفعل الصحيح الوحيد الذي قمت به! لماذا! لماذا؟

-27-

مسَّدت على وجهه وقبّلته بعد أن عزفت له مع طلوع الشمس. ثم استدارت لتفتح نافذة الغرفة؛ ربّما أنعشه ذلك النسيم الرقيق العابق برائحة العلّيق. ضحكت وهي تفتح النافذة، يبدو أن المأساة وجهها الهزلي حين تتخطى حدود المعقول. ضحكت من جديد وقالت لنفسها: "أعيش الآن في بيت له نوافذ وأبواب." ولكنها سرعان ما تجمّدت بعد هذه الملاحظة وتذكرّت حالة بيت السيد وجيه قبل أن تفرَّ منه وتنفّذ قرارها. وعاد الكابوس يغزو ذهنها.

عزفت الفرقة الموسيقية نشيداً وطنياً حماسياً وطرب القائد العسكري الذي طلب من فرقته أن تدبك، واشتبكت الايادي ودُكت الأرض بجزماتهم اللماعة وعلت الهتافات وصفّق الجميع وأُعجبت الراهبة برجولة القائد الفحل واقتربت منه يتبعها الرهبان وأخذت تغازله بخفر كما هو لائق بالقناع الذي يشكل شخصيتها. وحين لاحظت أن القائد استجاب لإغراءاتها، مدت يدها وسحبت وساماً من على صدره وعلقته على صدرها وهي تقبّله. فاستاءت السيدات الضباط واعتبرن أن الراهبة تغتصب حقاً من حقوق القائد، فالوسام حقّ شرعي له، اكتسبه في معركة...، ولا يمكن الاستيلاء عليه ولو بالطريقة التي تمّ بها. وبحركة واحدة سُحتب المسدسات الملونة وتواجه الرهبان مع الضباط واستعدّ الجميع لمشاهدة رشق آخر من الاسهم النارية. و"ما علمت، يومها، لماذا التحق رعد وأبوه بفريق الرهبان ولماذا التحق غوّار وبشّار والست عفاف بفريق الضابط، هل كانوا يعرفون المقنّعين؟"

رفعت الراهبة مسدسها وقالت لغوّار الذي يرتدي الزي العربي القديم: "أنت عليك أن تترك فوراً وإلا قتلتك" وأسرع بشّار إلى الرد: "لا أن يخرج" وعلا صوت الست عفاف: "إنه ضيفنا قبل أن تكونوا أنتم ضيوفنا ولن يخرج!" وتمنى رعد وأبوه أن يكون طلب الراهبة حقيقة، لا من داخل المسرحية لأنهما ما كانا قادرين على تحمل غوّار وحرية تصرفاته في البيت. وحاول غوّار أن يدافع عن نفسه، فشهر مسدسه وظن الجميع أن سهماً نارياً سينطلق وشدّ على الزناد وإذ بالطلقة رصاص فعلي وليس سهماً نارياً. وهنا التبس الأمر على الجميع واختلط الجدّ باللعب وتجمدنا للحظة نفكر هل أنّ ما يحصل هو من داخل المسرحية أم من

خارجها، لكنّ الرهبان، حين أطلقوا النار وكان رصاصاً فعلياً أدرك غوّار أن اللعبة ستنقلب عليه، فهو ما كان يعلم أن مسدسات الرهبان هو أيضاً حقيقية. ذعر حين سمع الرصاص، فرفع مسدسه وأخذ يطلق في الهواء وهو يفر نحو الداخل، فلحق به بشّار والست عفاف وتبعتهم أنا. دخلنا جميعاً إلى الصالون وأغلقنا الباب جيداً. فما كان من الراهبة ورهبانها إلا أن تبعونا قائلين: "فليخرج العربي وإلا كسرنا الباب". وفجأة فتح السيد وجيه الباب وهو يضحك ويقول: "فليخرج غوّار لبعض الوقت لأنه خرق قوانين السهرة يبدو أن له دوراً آخر في هذه المسرحية. فليخرج الآن كي تتم الصلحة بين جماعة الراهبة وجماعة القائد". وغادر غوّار ورافقه بشّار إلى باب الدار، وسمعته حلم يقول له: "حاول أن تكون مهرّجاً في الدور الثاني، لا ينقص السهرة إلا ذلك". وقال السيد وجيه وهو يترنح: "الآن فليتعانق القائد البطل مع الاخت المحترمة وليصف الجميع".

-لا! أجابت الراهبة بعد أن تشاورت مع القائد لا نتصالح الا إذا، وتابعت كلامها بصوت منخفض، في أذن السيد وجيه الذي أجابها بصوتٍ عالٍ: "إنها لكما، ما تعوّدت على رفض طلب للضيف مهما كان الطلب. ثم توجه إلى حلم وقال: "حلم يا حبيبتي ستبيّضين وجهي الآن. إفعلي ما سيطلبانه منك".

وانفجرت حلم بالضحك وهي على نافذة بيتها في الضيعة. لقد تذكرت دهشتها وضحكها في تلك الليلة؛ دخلت غرفتها ودخل معها القائد العسكري والراهبة، وحين باشرا بمضاجعتها تبين لحلم أن الراهبة ذكر والقائد أنثى. ولكن الراهبة الذكر مارست الجنس معها ومع القائد كما كان يمارسه السيد وجيه معها ومع الست عفاف. وحلم في تلك الليلة لم تشعر بالخجل ولا بالنشوة ولا... كانت تتركهما يقومان بما يريدان وهي تضحك لأنهما لم يخلعا أقنعتهما وهما يداعبانها. أعجبتها رؤية ذلك المزيج العجيب في شخصية كلّ منهما. وخرجت من غرفتها وهي تضحك، والآن كلما تذكرّت ذلك المشهد يأخذها الضحك وتقول: "وجه انثى وأعضاء ذكر ووجه ذكر وأعضاء أنثى!".

خرجت من تلك المزحة وأخبرت بشّار بالامر لكنّه لم يضحك بل كان يردد: "الله يسترنا من هذه السهرة!" لم يسمعه أحد كان الجميع يشربون ويرقصون وتناكحون كالحيوانات تحت الاشجار وداخل الغرب الخلفية...

تركت حلم النافذة وهي لا زالت تضحك حين وصلت إلى الشرفة سمعت أم فارس تحكي لاحدى زائراتها عن العرس واصفة دبكة بو جلال... يبدو أن الحدث، أيّ حدث، يبقى موضوع الزيارات في الضيعة إلى أن يأتي حدث آخر ليصبح بدوره موضوع الساعة. وعادت حلم إلى الماضي وكيف لها ألا تعود؟

بعد مغادرة غوّار الذي كنا نتوقع عودته في أية لحظة وهو في دورٍ جديد، شعرت أن رعد أخذ يدير السهرة؛ فهو الذي كان يأمر العازفين وموزعي المشروب، كان يراقب الجميع، والراهبة تنظر إليه وتبتسم. ثم نهضت من مكانها وتوجهت نحوه، وتكلما طويلاً، ورأيت رعد يبتسم ويربت على كتف الراهبة قبل أن تعود إلى مكانها وتشير إليه، من بعيد أن يبدأ.

أسكتَ رعد الموسيقى وساد الصمت للحظة بعدها، قال: "سنبدأ القسم الثالث من السهرة هو حفلة عرس بلدي. وعلت الأصوات تسأل عن العريس والعروس، فما كان من رعد إلا أن جرّني من يدي وقال "أعلن خطوبتي الآن على حلم وأتركها تحضّر نفسها لحفلة الزواج".

"ولست أدري كيف حضر فستان العروس والطرحة". كان كل شيء مدبراً. فالراهبة والقائد العسكري كانا قد هيّئا كلّ الامور لانجاح الحفلة. حتى أنّ السيد وجيه والست عفاف تفاجآ وفرحا بغيرة ضيوفهما ولكن، وفي الوقت نفسه، شعر أن الحفلة تفلت من أيديهما لتصبح ساحة ينفّذ عليها الآخرون كلّ ما يريدون. ولكنهما كانا ثملين واستسلما لأن همهما، بالنهاية، كان إنجاح السهرة. والسهرة، حتى ذلك الحين كانت ناجحة جداً.

أخذني رعد من يدي وسرنا ببطء في الممر الطويل، ذلك الممر الذي عبرته قبل أن أصل إلى غرفتي حين أتيت ذلك البيت للمرة الأولى. سرنا ببطء وعلت الزغاريد وعزفت الموسيقى أجمل زفّة عروس وتطايرت الكؤوس في الفضاء. كنتُ في حالة ثانية، نسيت نفسي لأصبح من داخل اللعبة، ووصلنا إلى مكان في الحديقة حيث توقفنا أمام أحد الرهبان الذي رفع يديه بحركة مسرحية ظريفة وبارك زواجنا.

وفجأة انقلبت الموسيقى إلى نغم هادئ ووجدت نفسي في منتصف الحلبة أراقص رعد والآخرون يرموننا بالزهور... ولم أخرج من اللعبة إلا حين سمعت صوت بشّار يقول: "أوقفوا هذه المسرحية، نحن اليوم نحتفل بعيد والدي، وحلم لن تُزفَّ لأحد سواي". وأختلطت الامور في رأسي وتساءلت هل أن قول بشّار يندرج داخل اللعبة أو هو يأتي من خارجها. يبدو أن بشّار كان في الحالتين معاً؛ فهو الذي كان يرفض رفضاً باتاً أن أزوّج، في الحقيقة، برعد، استطاع، في البداية أن يتقبل

الفكرة المسرحية لأنه كان داخل اللعبة، ولكن حين تحادث مع القائد انقلبت عنده الأمور ورأى أن ما يحصل هو الحقيقة التي يرفضها، وهكذا عاد ودخل المسرحية من حيث لا يدري، إذ انه امتثل لأوامر القائد العسكري معتقداً أنه يقوم بدوره الحقيقي بينما كان، في الواقع، يقوم بالدور الذي رسمه له القائد. ولهذا السبب ما عدت أدري هل كان بشّار يلعب أم لا، حين نهرني وضمني إليه. ورعد أيضاً، لم يكن يعرف الحقيقة، فنظر إلى الراهبة، ونفضت هذه يديها كأنها الأمر لا يعنيها، ونظر بشّار إلى القائد فنفض، هو أيضاً، يديه كأنّ الأمر لا يعنيه. في تلك اللحظة خرجا فعلاً من قوانين اللعبة وتواجها وأخذ كلّ واحد منهما يحاول استمالتي اليه. كنتُ في الواقع أحد بشّار وكان عليَّ، داخل اللعبة أن أنتصر لرعد، فحرت في أمري وهربت إلى غرفتي كي لا أكون سبباً في استفزاز أحدهما. وما كدت أرمي نفسي على السرير حتى سمعت صوت طلقات نار غزيرة وصوت السيد وجيه الذي يطلب إلى القائد أن يتدخل لإنقاذ الأجواء وتبديد الإلتباس. ثم دخل عليّ بشّار وهو ينتفض غيظاً:" كدت أسكته نهائياً وألغي من رأسه فكرة امتلاكك، لكن والدي استنجد بأم سبع وأولادها فتدخلوا وفصلوا بيننا". وقبل أن تسأله من هي أم سبع وما علاقتها بالموضوع، تابع:"والداي لا يهمهما إلا إنجاح الحفلة، حتى ولو تحولا وحولانا معهما إلى أدوات في أيادي أم سبع وبو داوود". وحين سألته أجابني: "وأنت، لماذا تفتعلين الغباء ألم تعرفي بعد أن القائد هو أسم سبع وأن الراهبة هي بو داوود، جارينا الكريمين؟" يا حلم ما عدت أستطيع التحمل، هل تهربين معي إلى بلد بعيد حيث نتزوج ونرتاح من كلّ هذه الأجواء؟" قبلت اقتراحه وتحمس وقررنا أن ننفذ فوراً لأن انشغال الجميع بالحفلة يسهل هروبنا. لكننا لم ننفذ، لأن التنفيذ كان يتطلب تحضيرات كنا غير قادرين على القيام بها. كم الواقع قاسٍ!، فهو دائماً يشكلّ العوائق أمام ما يخططه العقل. كان مكتوب عليّ أن أحضر الحفلة حتى النهاية!".

وما حصل بعد ذلك فاق كلّ تصوراتي. والحالة التي أصبح فيها البيت هي أفصح من أي وصف ومن أي كلام! ما ذلك الجنون الذي عمّ كلّ أنحاء الحديقة والبيت في آخر تلك السهرة؟ فالسيد وجيه الذي شرب وعربد حتى ساعة متأخرة من الليل خطر بباله أن ينتقل إلى لعب "البوكر". خطر بباله أو اقترحوا عليه ذلك، لست أدري. ورأيته يجلس في غرفة اللعب مع أربعة آخرين ولم أستطع معرفته إلا من زيّه. وتجمع حولهم أولاد أمّ سبع والربهان وغيرهم كثر. وبدأت "السيانس" ما أسمونها وأخذ السيد وجيه يخسر ويخسر فتركت الغرفة وانصرفت إلى الحديقة. ولم أعلم الا لاحقاً أن السيد وجيه خسر كلّ رصيده في البنك قبل أن يراهن على القصر. ففي الضربة الأخيرة بقي وحده مع وفيق، في الساحة. وحين تفحَّص وفيق أوراقه قال لوجيه: "صولد" وأجابه وجيه: "لم يبق من صولدي إلا هذا البيت".

ورد وفيق: سأكتب شيكاً بقيمة كذا ... وستكتب أنت تنازلاً عن القصر ونسلّم الوثيقتين إلى القائد، فإن ربحت أنت أخذت الشيك وبقي لك البيت، وان خسرت استرددتُ الشيك وامتلكتُ البيت". تفحص وجيه أوراقه بعد أن قال كلمة بالفرنسية" "دروا"، ووافق ووزعت الورقتان الاخيرتان وخسر وجيه كلّ شيء. لكنه لم يستوعب القصة في البداية وحاول أن يتهرّب من وعده ويمزق الأوراق في يد أم سبع، لكنّها شهدت للحق وسلّمت السيد وفيق الوثيقتين، فما كان من هذا الاخير إلا أن مزق الشيك ورفع القناع عن وجهه وكتب شيكاً آخر وقال:" سأسمح لك بالبقاء في البيت حتى تتدبر أمرك وسأعطيك نصف قيمة الشيك الأول كي تتصرف. وعلت الهتافات التي تشيد بكرم السيد وفيق ونبله. أم السيد وجيه، فظل صامتاً، لأنه ظن أن المسرحية تتابع فصولاً وبعد أن رفض استلام الشيك من يد وفيق خرج من الغرفة، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وتوجه إلى بركة السباحة وأشعل الوسكي كما وعدنا، وهب منها اللهب الأزرق، وظن الضيوف أن نهاية الحفلة قد حانت، وأطلقوا النار من مسدساتهم واختلطت اصوات الرصاص بأنوار الأسهم النارية قبل أن تبدأ الانفجارات تسمع في كلّ أنحاء القصر. وتصاعدت رائحة البنزين والغاز والست عفاف تصيح: مؤامرة! مؤامرة!

وأسرعت سيارات الاطفائية وخرجنا من تلك الليلة ونحن نندب رعد الذي احترقت جثته ولنجد أنفسنا في بيت فارغ من كلّ محتوياته لا نوافذ له ولا أبواب. وفي مرحلة التعازي سمعنا من قال أن أولاد أم سبع هو الذين فتحوا قوارير الغاز وبراميل المازوت والبنزين في الطابق السفلي ومنهم من قال أن بو داوود هو الفاعل ومنهم من أتهم غوّار لأنه طرد من الحفلة وكثرت التأويلات والتفسيرات، فالذين أتهموا أم سبع وأولادها برهنوا على ذلك بأنهم سلبوا كلّ محتويات القصر بعد أن هدّوا السور بين البيتين لتسهيل عملية التهريب، والذين اتهموا بو داوود قالوا الشيء نفسه والذين اتهموا غوّار قالوا إنّهم شاهدوه في آخر السهرة.

"كلّ ما أعلمه هو أن السيد وجيه كان قد انساق إلى الجنون من حيث لا يدري ولا يدري. أخبرتني لاحقاً الست عفاف بأن زوجها، وقبل القيام بتلك الحفلة كان قد تشاور مع أمّ سبع وبو داوود وعرض عليهما فكرته وشجعاه وقالا له لا يهتم وبأنهما سيبذلان جهودهما لإنجاح عيد ميلاده الخمسين وعرضا معه كلّ فصول المسرحية". وتابعت: "لكن النهاية خرجت من يده وحصل ما حصل وهكذا دمرّنا في ليلة واحدة كان يريدها ليلة العمر وسهرة المواسم وكلّ المواسم". وفعلاً كانت سهرة كلّ المواسم قالت حلم لنفسها، فلم يبق أحدٌ إلا وعلّق عليها، أصبحنا تسلية للناس وموضوعاً لشماتاتهم!

بساتين الضيعة، كلّها مسيّجة بالعليّق الكثيف، لا أحد يدخل بستان جاره، ولا أحد يسرق من هذه الضيعة! قال لها بو جلال يوماً. "هل اسوار العلّيق هو أمنع من السور الذي كان يسّيج قصر السيد وجيه؟ انهار ذلك السور الحجري وبسرعة، أمام ضربات رهبان بو داوود وزنود منجدات أم سبع الانيقات... ولا يزال حتى الآن مهدوداً ".

-29-

طلقة نار عبرت الفضاء في ذلك الصباح وأعادت حلم إلى حاضرها. طلقة ثانية ثم ثالثة، وخرج الناس من بيوتهم يتساءلون من مات في الضيعة. وسمعت بو جلال يقول: "إنه حتماً بو نزار، لقد نقلوه أمس إلى المستشفى على إثر نوبة قلبيّة".

أغلقت حلم نافذة غرفتها ونزلت إلى بيت جيرانها حيث تجمّع رهط من الناس ومن بينهم بو جلال الذي تحمّس وذهب إلى ... ليتأكد من الخبر. وما لبث أن عاد وهو يقول: إنّه بو نزار...وصل إلى المستشفى على آخر نفس ولم يستطع الأطباء إسعافه".

المآتم كالافراح، في تلك الضيعة؛ يتجمّع كل أهلها حول الحدث ويقوم كلّ واحد منهم بما يترتّب عليه. فكلّ عرس هو عرس الضيعة وكلّ مأتم هو مأتم الضيعة. وحلم التي أصبحوا يعتبرونها منهم بعد أن زاروها واستقبلتهم كما ينبغي، صعدت بسرعة إلى بيتها، رتّبت شؤون ابنها، ارتدت السواد ورافقت بو فارس وزوجته إلى بيت الفقيد.

رشّ الكاهن تراباً على الجثة وصلّى الشيخ عليها قبل أن توارى الثرى. "وفيق من التراب وإلى التراب يعود" سمعت الكاهن يقول.

استوقفها الاسم، نسيت الدفن وعادت إلى ذاكرتها تتساءل: "أين كان مختبئاً كل ذلك الوقت ولم اسمع به ولم أره إلا في تلك الحفلة...".

"كان وفيق فاعل خير، رحمه الله، لم يوّفر جهداً في مساعدة العوزين". هكذا قال الشيخ، وردّدت حلم في داخلها: "ووفيق أيضاً، كان يُعرف أنه فاعل خير قبل أن اكتشفه على حقيقته".

إنتهت المراسم، فعزّت حلم أهل الفقيد وعادت مسرعة إلى بيتها، وأفكارها تدور حول ما أيقظه إسم المتوفي في ذهنها وفي ذاكرتها القريبة جداً، تلك الذاكرة

التي كانت تحاول دائماً الفرار منها. "لقد انتهى من حياتي، لن أفكر به بعد الآن" قالت لنفسها وهي تفتح باب شقتها.

نظرت حلم إلى الأفق وإذ بأشعة الشمس تلامس رؤوس أغصان العليق في آخر الضيعة. إنّه المغيب. أخذت الناي وعزفت وغرقت في العزف.

كان بو جلال على شرفة بيته يسمع وتعاوده صورة ريم الذراعين والرأس وهي تعزف للطفلة أمامها على الأرض. ضمّها إلى صدره وقبّلها وداعب عريها وأخبرها أنها أجمل إمرأة رآها، وباح لها بحبّه. "جدّي لقد جئنا!" أتاه صوت حفيده وهو يهرول نحوه. عادت عائلة ابنه من العاصمة. كان خبر موت وفيق حافزاً لاستعجال مجيئهم. فرح بو جلال، رفع الطفل إلى صدره وقبّله بشوق. لقد أتوا ليقذوه من الوحدة والذاكرة. "الآن ستزورنا حتماً أم فادي، سأعرّف كنّتي بها" و...يتابع بصوتٍ عالٍ: "كم أنا سعيد بمجيئكم" وهو يساعدهم بنقل امتعتهم من السيارة إلى البيت.

عصرية اليوم التالي أتى بو جلال بحفيده إلى بيت بو فارس وذهب مع ابنه وكنتّه إلى بيت بو نزار للتعزية. كانت حلم في بيتها تتخبّط بين مستقبلها الغارق في غيبوبة الحاضر وبين ماضٍ يسيّج أفق أفكارها؛ حيثما توجّهت ارتطم نظرها بحادثة مؤلمة. "فادي لا تقفز هكذا، ستقع"، سمعت أم فارس تصيح. خرجت إلى الشرفة. طفل في السادسة من عمره تقريباً يلعب على المصطبة أمام أم فارس وزوجها الذي كان يردّد مازحاً: "إنه شقي كجدّه".

"فادي! ليت فادي يستفيق ويقفز ويقع ويُجرح وحتى يكسر شيئاً من جسده، ليته، فقط، يتحرّك ليحرّك الأمل في قلبي!" تركّز نظرها على الولد الذي ما عادت تراه، كان ابنها أمامها يقوم بحركة لا تهدأ. "متى سأركض وراءه وأحميه من الوقوع، متى؟ وهل؟ مسحت دموعها ودخلت بيتها؛ لا تريد أن يرى يأسها أحدٌ.

عجقة في الخارج وصوت بو فارس يعلو: "أهلاً، بو فادي، الحمدالله على السلامة".

"بو فادي! كانوا سينادونه بو فادي! وهو كان يصرّ على هذه التسمية. قال للمهنئين الذين زاروني في المستشفى: "أصبحت الآن بو فادي، حتى، أنا، كنت أناديه، تحبّباً: "بو فادي". كم كان فخوراً بي! يبدو إن الحب هو الغفران الوحيد. نسي بشّار كل الماضي وحضنني، أخرجني من ضياعي ونصبنّي سيدة محترمة. كان يردّد على مسمعي: "الماضي إنتهى والآن نبدأ من جديد". هل كان الماضي منتهياًن حقاً، عنده؟ كنا سعيدين ولهذا السبب اغلقنا باب الماضي، لا يوقف طغيان

الماضي على الذ اكرة سوى نجاح الحاضر والتطلّع إلى المستقل. ولكن حين يكون الحاضر غائباً فأي مستقبل يُفكّر به؟ يبقى الماضي هو الزمن الوحيد. ولكن لماذا لا يستطيع الانسان أن يعيش خارج زمانه؟ ضحكت من سؤالها وأجابت نفسها: "الزمان هو الحقيقة الوحيدة، نستيطع أن نفرّ من المكان نستطيع أن نهرب من ذواتنا، نستطيع أن ... أما الزمان! يا له من وجود! بل هو الوجود! لا مفرّ منه إلا بالموت. هل صحيح؟ لا! فحتى وإن متنا نبقى في ذاكرة الآخرين، نبقى لنشكلّ قسماً من ماضيهم. لا مفرّ، إذاً منه. متى ولدنا، دخلنا اللعبة، لعبة الزمن؛ لا يقهر الزمن إلا من يبقى بالقوة ولا يدخل حلبة الفعل، من لا يولد بعد فهو أقوى من الزمن لأنه خارج. توقفت هنا لأنها ما عادت تستيطع بلورة أفكارها وانتهت إلى القول: شيئان لا مفر منهما: الزمان والمكان، لا وجود من دونهما. وهذه النتيجة نقلتها إلى مكان آخر وزمان آخر.

-30-

بعد تلك الحفلة بأيام جمع السيد وجيه افراد العائلةج وقال لهم إنه لن يترك هذا البيت للتسيب والاستهتار بعد الآن. وتوّجه إلى حلم: و"أنت يا حلم، ستعودين إلى دورك الطبيعي. أتينا بك لتخدمينا وهذا ما عليك، من الآن وصاعداً، أن تقومي به. ستلتزمين بدورك هذا وإلا... مفهوم؟" لم يتابع كلامه في ذلك الوقت وحلم كانت تتساءل: "وإلا ماذا؟ هل سيطردني؟" إمتثلت لأوامره وخدمتهم جميعاً. فقط، بشار كان يحاول الا يطلب منها شيئاً، كان لا يريدها أن تخدمه. ولكن نوايا السيد وجيه كانت غير ظاهرها؛ حرّم حلم على الجميع كي يحتكرها وحده. ولم تدرك حلم لعبته إلا حين دخل عليها بعد أيام قليلة على خطابه العلني. كانت السيدة عفاف خارج البيت، ذهبت برفقة بشار لزيارة أمّ سبع. فتح غرفتها ودخل مبستماً، اقترب منها، مسدّ على شعرها وقبّلها. كانت تظن أنه كان يهنئُها على حسن سلوكها ولكنه فاجأها بأن أخذ يعريها ويداعب جسدها، كما في السابق، ورأت نفسها على السرير، والسيد وجيه عارياً فوقها. لم يترك لها الوقت كي تذكره بما قال أمام الجميع، إذ أنه، كان يعلّلها بالوعود والمال إذا بقيت له وحده وأخفت علاقته بها عن الآخرين. كانت لهجته بين الترهيب والرجاء.

أخفيت تلك العلاقة عنهم. ولكن يبدو أن الزوجة تملك حاسة غريبة لاكتشاف خيانة زوجها. كيف علمت الست عفاف بممارسات السيد وجيه معي؟ "أنا من سيطردك من هذا البيت، قالت لها وهي غاضبة، وسأبين كذبه أمام الجميع". وعلا

صوتها وهي تصرخ بوجهه وتقول إنها هي سيدة البيت وإنها اكتشفت نواياه وأفعاله. وانتفض السيد وجيه وحوّل اتهاماته نحو حلم التي وصفها بالكاذبة والمحتالة وهو ينفي كلّ اقوال زوجته. وتدخّل بشار ليحّل المشكلة وكلّه أمل بأن يكون ابوه صادقاً، فهو، يجب حلم، ولكنّه ابتعد عنها لا امتثالاً لأوامر أبيه بل لكي يبتعد عنها الجميع، وكان ينتظر الوقت المناسب كي يصارحها بما يشعر به تجاهها، كي يبوح لها بأنه هو الوحيد الذي يحبها جدياً. وعلا صوت الست عفاف بالسباب والشتائم واجتاحتها موجة من الهستيريا، وكلما علا صوت السيد وجيه كلّما استفذها وأخرج من فمها كل أنواع السباب والشتائم؛ ستمت عيسى زوجها وشتم هو بدوره محمد زوجته. كانت الغيرة تنهشها نهشاً وكان الغضب يحوّله إلى مجنون. تدخل بشّار وحاول اسكات أبيه لكي تهدأ أمه ولكي لا يسمع أحد أصواتهما، ولكنه فشل في محاولته وسمع الآخرون ما كان يريد إخفاءه عنهم.

"سأسكتك بالقوة، يا فاجرة، أنا من يعرف كل خفاياك!" صرخ السيد وجيه ورفع يده وصفعها. وصاحت الست عفاف :"ام سبع، النجدة!" ودخلت ام سبع، كأنها كانت واقفة خلف الباب إذ لم يتسغرق مجيئها ثوانٍ. دخلت وتبعها الشباب الخمسة. "يا إلهي كانت كمدرّعة، ترعد رعداً، وهو توّبخ السيد وجيه على سلوكه المنحط. ولكن كيف استطاعت تغيير لهجتها بسرعة، حين توجّهت إلى الست عفاف وحاولت مؤاساتها والتخفيف عنها؛ رقّ صوتها وأصبحت كلها حنان وهي تمسّد على شعرها وتضمُّها إلى صدرها وتطمئنها بأن لا أحد بمقدوره أن يدوس على حقوقها". وصمت السيد وجيه، إذ أنه أصبح الأضعف، وهدأت الست عفاف في أحضان أم سبع. أما بشّار فقد دخل غرفته وهو يندب حظّه وتلوح في رأسه كل القصص الماضية التي كان يعتقد أنها انتهت إلى غير رجعة. "سنعود من جديد إلى جحيم، ما عرفنا كيف خرجنا منه! لماذا بلاني الله بأهل من هذا النوع، لا يخافون الفضيحة ولا يهنأ لهم عيش من دون شجار وإقحام الآخرين في أمورنا؟" وحدست حلم ان المسرحية ستتتجدد وبأنها ستصبح أداة في أيادي أم سبع وأولادها؛ سيتحكمون بها ويفرضون عليها شروطهم ويسلبونها مالها التي كانت قد جمعته من ممارساتها السابقة ، سيسلبونها ويرغمونها على الشكر بحجة أنّهم يحمونها من الآخرين!

"ماذا كان باستطاعتي أن أفعل. أذكر أنني، في ذلك الوقت خطّطت مجدداً للهرب والرحيل عن ذلك الجو، وتمنيّت لو أن الميتم كان لا يزال موجوداً، لكنت حتماً عدت إليه وكرسْت حياتي له ولصغاره المساكين، ولكنت دقّقت جيداً في هوية وشخصية كلّ من أتاه ليطلب منه فتاةً ما، قبل أن يصطحبها معه إلى بيته. لماذا أقفل ذلك الميتم، ولماذا نُقلت المديرة إلى مكان آخر؟" وفجأة لم تعد حلم تفكر

بموضوع انتقال الميتم ومديرته إذ إنّها تذكرّت جوزيت، فضحكت وأخذت تميل برأسها يميناً وشمالاً: "هي التي أيقظت جسدي، هي أول من مارس معي الجنس من دون أن أعرف ماذا أفعل. هل سلوكها هو الذي سهّل عليّ قبول ممارسات الآخرين لاحقاً؟ ضحكت من جديد وقالت:"لكنتُ عدتُ إلى أحضان جوزيت! ولكن من يدري أين هي الآن ومع من تمارس هوايتها؟"

"وأخبرتُ بشّار عن مخاوفي وعن ممارسات الست أم سبع معي" وأم سبع! يا لها من إمرأة قوية! كانت تمارس الجنس مع حلم، من دون أن يعلم أحد بذلك وتمارس الجنس مع الست عفاف خلال زياراتهما المتبادلة، وأحياناً تجمعهما معاً؛ كانت تدخل غرفة الست عفاف، طبعاً، بدعوة من هذه الأخيرة، إذا أانّ أمّ سبع لا تسمح لنفسها بالدخول على الست عفاف من دون دعوة. تدخل عليها ويعلو صوت الست عفاف آمراً حلم بتحضير القهوة أو غيرها بحسب رغبة أم سبع، ويغلق الباب جيداً. أمّ سبع جالسة على كرسي تشرب قهوتها وتأمر، فتتعرّى الست عفاف أولا وتتلبّك حلم فيأتيها الصوت الجوهري بأن تنقاد للأوامرِ، فتبكي أحياناً وتأتيها صفعة على وجهها تفقدها صوابها وتنفّذ كلّ ما يُطلب منها؛ تغمرها الست عفاف وتمارس معها السحاق وأمّ سبع تراقبهما وتهتاج، ثم تشير باصبعها فيقتربان منها وقد أصبحت عارية على كرسيها، وتبدأ بمداعبة ثديي الست عفاف، طالبة من حلم أن تضع رأسها بين فخذيها، فتمسك رأس حلم بيد وتتابع، باليد الثانية مداعبة فرج وبظر الست عفاف التي تداعب بدورها ثديي أمّ سبع، فينتشيان معاً، وتخرج أم سبع، وتعود إلى بيتها كأنها لم تأت إلا لمواساة أهل ذلك البيت المنكوب.

وهكذا كان يفعل بو داوود، يقفز من النافذة، بعد أن يكون قد تسلل من الحديقة، ويدخل على حلم. يمارس معها كل هوّاماته، يضاجع كلّ أنحاء جسدها إلا المكان المخصّص طبيعياً لهذه الغاية، وتحاول حلم الصراخ فيسكتها بالقوة إلى أن ينتهي منها ويعود إلى بيته. كانت في البداية تخفي الأمر على بشّار، فهي لا تريد أن يعلم بما يحدث معها ولكنه كان يعلم ويخبرها بالتفصيل، عن كلّ ما مرّتْ به وتستحلفه أن يعترف لها عن الذي أخبره ومن أين له هذه التفاصيل وهو يهزّ برأسه ويقول: لم يخبرني أحد لكني أسمعهم وهم يتبجّحون، كلّ بدوره، كيف استفردك ومارس معك كلّ ما يطيب له أن يمارس. وتبكي حلم وتعتذر إذ لا حيلة لديها، ويعزّيها بشّار والحقد يملأ قلبه: ستكونين لي وحدي! وتصرخ: متى؟ متى؟ ومن جديد تدخل عليهما الست عفاف ويُفضح أمرهما وتدبُّ الفوضى ويدور الشجار.

-يا خائن، يصرخ الأب، تنكّرت لدين أبيك لتنتصر لأمك وذلك...

-يا عكروت! تصرخ الأم، لو فيك دم لثأرت لأخيك.

وتكرج الدوائر الفارغة لتضع حلم في دوّامة مرعبة لا تدري كيف تخرج منها وكيف تتخلّص من سطوة أم سبع وأولادها وتسللات بو داوود الليلية وحماقات أهل الدار.

وإن تخلّصت منهم، فهل سيحافظ بشّار على وعده وتصبح له وحده؟

"من دوامة إلى أخرى، قالت لنفسها وهي لا تزال غارقة في ذاتها. هنا أيضاً دوّامة الانتظار. ادور، أدور كي ينتهي النهار، وأنتظر، أنتظر الفجر علّ الله، أخيراً يرأف بي ويعيد لي ابني، ويعيد لي الأمل!".

-31-

صوت رجل ينادي :" هيا فادي سنذهب إلى بيتنا".

"متى ستكون عودتي مع فادي إلى بيتنا؟ ولكن أي بيت وقد أصبح الآن ملك وفيق؟" وامتثل أمامها ذلك الرجل بقامته الضخمة وصوته الأخن وسمعته يقول لها: انتهى أمر فادي، المهم هو أنت الآن". "كيف تجرأ وقال هذا الكلام؟ ولكنه نال جزاءه من. وأنا ماذا جنيت؟ لا! لا أريد شيئاً منه هو وماله، يا إلهي متى كان المال دليل ذكاء؟ ولكن كيف قبلت به؟ لماذا اضطررت إلى ذلك؟ اعتبرته عملية إنقاذ بعد أن فقدت الأمل. ولكنه من أين أتى، وكيف تسرّب إلى داخل بيتنا كما يتسرّب النعاس إلى جسم منهك؟".

حين أتى، للمرة الأولى إلى ذلك البيت، لم تكن حلم تعرف عنه شيئاً. أتى بدعوة من أحد أبناء أمّ سبع إلى تلك السهرة المجنونة حيث حصل ما حصل.

"كم كان حدس بشّار صحيحاً! قال لي يومها: كلّنا نريدك يا حلم، ولكننا حذرون... ولكن ما لم أفهمه حتى الآن، فهو إدخال السيد وفيق في أمورنا ودعوته إلى تلك السهرة، صحيح إنه من أبناء الحي، لكنه رجل عادي، اغتنى بطريقة مفاجئة، وهو يحاول أن يفرض نفسه بواسطة ماله. وإن بقينا على ما نحن عليه، سيفرض نفسه علينا وسيدخل اللعبة من بابها العريض... وما يؤلمني حقاً هو أن ترغمي، يا حلم، على النوم معه، فهذا أمر لا أستطيع تحمله". وحلم تضحك وتجيبه: "لن أترك هذا الخنزير يقترب مني حتى ولو كلفني الأمر حياتي!" ولكنه اقترب واقترب جداً " كانت تقول لنفسها وهو خارجة من ليل لم يغمض لها، خلاله، جفن.

-32-

"جميل الصباح في الضيعة!" قال جلال لأبيه، بعد أن صبّحه وجلس معه على شرفة غرفته، وتابع: كم نحتاج إلى هذا الهواء... الحياة في العاصمة متعبة ومرهقة للأعصاب، لكن لا بد منها." صمت وأخذ نفساً عميقاً لينعش رئتيه بذلك النسيم الطري. وأتى صوت الناي كشعاع نورٍ يخترق فضاء مظلماً.

-هل لا يزال في ضيعتنا رعيان وأغنام؟ سأل والده.

-لا! إنها جارتنا، أم فادي... وستسمع هذا العزف كلّ يوم.

لم يفهم جلال قول أبيه. ولكنه بعد أن استوضح الأمر، ثارت عنده حشرية الطبيب واتفق مع أبيه على القيام بزيارة أمّ فادي والاطلاع على حالة ابنها.

حالة اليأس تدفعنا إلى التمسك باليد التي تُمتدُّ لنا. أحبت حلم الدكتور جلال وأنست له وصغت بكلّ إنتباه إلى أقواله التي أتت على الشكلّ التالي: "إنها حالات يعجز الطب أمامها، فلا نملك حيال وضع مثل وضع ابنك إلا الانتظار ومتابعة العلاج والتعذية كما تفعلين... وسيشفى إن شاء الله... لقد حدث ذلك مرّات عديدة.. ولكن!

-لكن ماذا؟ أرجوك، صرخت حلم.

-أحياناً يخرج المريض فاقد الذاكرة.

-فليفقدها، ويعود... فليفقدها! أفضل ذلك... وتابعت بصوت منخفض: "لا أريد أن يذكر شيئاً ".

لا! لا تريده أن يذكر شيئاً، وهو حتماً لن يذكر شيئاً. كان عمره أقل من سنة حيث حدث ذلك. ولكنه كيف نجا من ذلك الحادث؟ كيف نجا وتحطم جسد بشّار. "ليته لم يخرج ذلك اليوم. المسكين كان يريد الاحتفال بي، الاحتفال بذكرى أول يومٍ أتيت به اليهم. كان ذكرى خروجي من الميتم. أراد بشّار أن يجعل من ذلك اليوم تاريخاً مهماً هو الذي أحبني منذ أن رآني داخلة بيتهم. هل كنت شؤماً على ذلك البيت؟ ولكن ما هي خطيئتي؟ أي ذنب ارتكبته ح تى أجازى بهذه القساوة؟ صحيح أنّ الأولاد يضرسون! ماذا فعل والداي كي أدفع أنا الثمن، ومن أين أتيت؟ هل أنا إبنة متعة عابرة بين رجل وإمرأة، تلاقيا صدفة ثم تخلّصا منّي ورمياني في الميتم؟ أنا أيضاً من دون ذاكرة وأعيش، فليخرج فادي من غيبوبته وأنا سأعلّمه

ماضيه، سأرسمه له بكلّ دقة وساحفره في مخيلته وأحول قسماً منها إلى ذاكرة لا تُنسى".

كان جلال يراقب الطفل ويتكلم مع أمه، وزوجته تراقبها وتشفق عليها، وبو جلال يفكّر ولا يتكلم. وبعد أن مرّت خواطر عديدة في رأسه قال وهو يتوجّه إلى إبنه: "إنها تعالج إبنها بالعزف على الناي". صمتت حلم، وأجاب الطبيب: "لكل طريقته في مثل هذه الحالة، وحدْس الأمّ يكون عادة أصدق الحدوس!" وتابع يشجّع حلم ويعرض عليها خدماته في حال احتاجت إلى أي شيء. ودعتها زوجته لزيارتهم بعد أن علمت أنها من العاصمة مثلها وقالت: "وأنا ايضاً لا أعرق كلّ الناس هنا، في الضيعة، ويسرّني أن نلتقي و ... "

-ولكني لا أستطيع مغادرة ابني، تعلمين.

-لا! لا! اطمئني، تستطيعين مغادرته لساعة أو ساعتين، لا تخافي. وعليك أن تخرجي من وقت لآخر، فهذا أفضل لك.

-33-

"لا! لا تخافي، اطمئني!" ماذا يعني قوله هذا. هل هو فاقد الأمل في شفاء ابني؟ هل هو واثق أنه لن يخرج من غيبوبته وبالتالي باستطاعتي أن أتركه لساعة أو ساعتين من دون خوف وقلق؟ ولكنه قال إن حالات شفاء عديدة قد حصلت معهم... لماذا لا تكون حالة فادي من بين هذه الحالات؟ لقد حصل ذلك مرّة، وانتعش قلبي بالأمل حين كنت أراه يتحرّك، ولو بشكل بطيء ومتعثّر. هل أنا كنت السبب في انتكاسته؟ هل أهملته؟ لا أعتقد. إنه كان همّي الوحيد بعد غياب أبيه. كنت له وله وحده. حتى زواجي بوفيق، قمت به من أجله. سيعود! من غير الممكن أن تكون حياة الانسان، كلّها خيبات. إنه الشيء الوحيد الذي فعلته بحبّ وإرادة حرّة. هل ذلك كان تمرداً مني على قدري؟ وهل قدري أن أكون أداة متعة من دون إرادة ولا قرار؟ لا! إنه فعل إرادتي الوحيد وسانفخ فيه الحياة وسأعطيه عمري كلّه. وماذا يعني لي عمري وحياتي إن فقدته؟ وماذا سيحل بي من دونه؟ هل أعود إلى ما كنت عليه؟ لا! وألف لا! لن أعود لعبة للتسلية، لن أكون بعد الآن مكبّ نفايات!".

أمسكت ابنها من كتفيه وهزّته بعنف : "أرجوك انطق، تحرّك، أنقذني!" وانفجرت بالباك. ثم أخذت تضحك بشكل هستيري إذ انّها تذكرت ذلك الطبيب الذي كانوا ينادونه : الدكتور. والذي كان طبيب العائلة في أيام عزِّها.

الدكتور رجل أنيق، رصين، يدخل على السيد وجيه أو الست عفاف حين يكون أحدهما مريضاً، يعاينه بكل دقّة، يصف العلاج، يتحدّث مع الشباب، يشرب القهوة وينصرف بكل تهذيب. أتى يوماً لمعالجة الست عفاف. دخل غرفتها وطلب كأس من الماء. أتته بها حلم. فشكرها وطلب منها أن تعتني بمعلمتها. وقبل أن ينصرف قال للست المريضة: "سترافقني حلم إلى العيادة، وسأبعث لك، معها الدواء وأعلّمها كيفية استعماله كي تتعافي بسرعة على يدها الجميلة".

"ما الذي يغيّر الرجال بهذا الشكلّ، ما الذي يجري حين يُغلق الباب على رجل وامرأة وحدهما؟ هل كان متواطئاً مع الست عفاف، هل كانت هي، تدري بممارسته غير الظاهرة والتي لا يمكن لأحد أن يتكهّن بها حين ينظر إليه وهو يمارس دوره كطبيب مهم؟".

دنا منها، طوّقها بذراعيه، ومن دون أن يقبلّها، عرّاها، ثم تغيرت ملامح وجهه، خلع ثيابه بسرعة، دبَّ على الأرض وصرخ بحلم أن تفعل مثله، ثم دفعها وقال: "اركضي بسرعة كما تفعل الكلبّة الهاربة". ضحكت حلم وتساءلت: هل هذه مسرحية؟ هل أنا في يقظة أم... دفعها من جديد وقال: "إركضي وإلا نهشتك". امتثلت حلم لطلبه، ركضت وتبعها. كان يهرول كالحيوان فعلاً. يبدو انه معتاد على الجري هكذا. طافت حلم في أرجاء الغرفة وأسرعت في حركتها وكانت فعلاً تهرب منه ولكنهان في الوقت نفسه، كانت تلبّي رغبته بأن تهرب منه. وحين أمسك بها أخيراً، مارس معها الجنس كما تمارسه الكلاب، أو كما تمارسه الحيوانات إجمالاً. ولكنه كان يصدر أصواتاً كالعواء ولهذا السبب لم يتراء لحلم إلا صورة الكلب إذ أن الصوت كان العنصر المحدّد في التوصيف.

-34-

بعد عدّة أيام قرّرت حلم أن ترد الزيارة للسيد جلال وزوجته. قررّت ذلك، لا حبّاً بالزيارات والتسلية، بل بدافع طرح الاسئلة المعلقة بوضع إبنها، على الطبيب.

طرقت الباب المتفوح، الابواب في تلك الضيعة لا تغلق في النهار ويدخلها، عادة الزوار، من دون إستئذان. يدخلون وينادون: "مين في هون؟" ويأتيهم الصوت من الداخل: "تفضلوا، نحن هنا". طرقت الباب وأتاها الصوت: "تفضّل"، وفي الوقت نفسه رأت الطبيب خارجاً من غرفة داخلية. "تفضّلي، أهلاً بك". ثم

نادى زوجته التي أتت مسرعة ترحّب، هي أيضاً بالزائرة. "هل استقبالهم لي هو استقبال حقيقي وصريح، أم إنهم يشفقون على حالتي؟" ردَّت على المجاملات بمثلها من دون أن تعي تماماً ماذا تقول. إذ أن ذهنها شرد في موضوع آخر؛ شعرت وهي تدخل ذلك البيت، وكأنها في حلم ضبابي؛ "هذه البئرفي وسط الحديقة أعرفها، ولكن أين شجرة التين التي تظللها؟ وأين النعجة المربوطة بجزع تلك التينة؟" وسمعت صوت الدجاج ونظرت في كلّ الاتجاهات: "أين الدجاجات التي تنقر الارض وتقوق؟"

-"أهلاً بالست أم فادي، قال بو جلال وهو يمدّ يده لمصافحتها وإخراجها من رؤيتها الدغشاء، التي تكونت عندها، وفقاً للنظرية الكشتالتية، حيث إن رؤية الجزء تحضر في الذهن صورة الكلّ. وحين لاحظ بو جلال أنّها تنظر إلى البئر والحديقة، قال:

-بيتنا من البيوت القديمة في هذه الضيعة. ولكننا نهمله بسبب غيابنا عنه لمدة طويلة كلّ سنة. ومع ذلك فإنني أفضلّه على البيوت الجديدة على الرغم من إنه فقد الكثير مما كان عليه.

-إنه حقاً جميل، أجابت حلم ونظرها مثبت على البئر.

-أما هذه البئر، فقد أصبحت للزينة فقط. كنا نسحب منها المياه، في الماضي ونسقي الحديقة ونغسل الارض، وتفوح رائحة التراب... ماؤه كان عذباً وطيباً ومفيداً إذ انّ جرعة منه كانت تهضّم الطعام مهما كان دسماً. لا ببسي كولا ولا بلّوط.

ثم توجّه إلى ابنه جلال وتابع:

-هل ما زلت تذكر تلك التينة الوارفة التي كنا دائماً نشرب القهوة في ظلّها؟

-طبعاً! أذكر، وأذكر أيضاً تلك النعجة التي كنت أشرب حليبها في الصباح والمساء.

-سآتي بنعجة، هذه السنة وسأطعم حبيبي فادي ما كنت أطعمه لك في صغرك. حليب العلب لا يغذي جيداً.

كان بو جلال يتكلّم وحلم تتذكّر بعض الروايات التي قرأتها والتي كان بشّار يزودّها بها من وقت لآخر. تلك الروايات كانت تصف القرى وأهلها وعاداتها وتولد في مخيلة حلم صوراً كثيرة. إذ ان فضل الكتاب على السينما يكمن هنا، في الافساح في المجال أمام مخيلة القارئ أن تسم المشهد على هواها بينما السينما

تفرض على تلك المخيلة أشياء محدّدة، إنها تقمع المخيلة، تخصيها وتحوّلها إلى عين فقط. ولهذا السبب كانت حلم، وفي أوقات فراغها القليلة تفضّل القراءة على مشاهدة التلفزيون أو الذهاب إلى السينما. "هل ما أتخيّله الآن هو من وحي تلك المشاهد التي رسمتها مخيلتي من خلال روايات بشّار؟ ربما؟".

-أين ذهبت تلك الطفلة التي كنت تقول لي إنها قريبتنا. هل عدت رأيتها بعد أن أخذها أهلها كما قلت لي؟ سأل جلال أباه.

-لا! لم أعد أراها أبداً... صمت قليلاً ثم تابع. لم تكن قريبتنا بل كانت طفلة يتيمة. توفي أهلها بحادث غامض وبعد رحيلهما بفترة، اضطررت إلى تسليمها للميتم، لأن والدتك، رحمها الله، كانت تريد ذلك. لم أزرها بعد ذلك الوقت، وحين انتقلت معك، بعد وفاة أمك، إلى العاصمة، كان الميتم قد أقفل. وهكذا تعذّر علي معرفة ما حلّ بها.

اضطربت حلم عند سماعها أقوال بو جلال ولكنها تماسكت وصمتت وأخذت تحضِّر في ذهنها سؤالاً يغيّر الموضوع لتُظهر ان الأمر لا يهمها. لكن الحكيم ردّها إلى اضطرابها حين سأل.

-لم يُعرف شيء عن ذلك الحادث، أليس كذلك؟

-لم نعرف شيئاً... ذهبا كما أتيا! لم نعرف حقيقة أمريهما، وقتلا من دون أن يُعرف القاتل... وبقيت الصغيرة وحدها... صمت طويلاً ثم تابع: والآن إذا رزقت بطفلة، أتمنى عليك أن تسميّها حلم ما رأيك؟ أو إن أردت ريم! آه لو ترزق بطفلة جميلة مثلها! قال ذلك وصمت من جديد وتسمّر نظره باتجاه الحديقة ومرّ في باله صور، هث عناصر من ماضٍ بعيد؛ شاهدها وهي تسحب الماء من البئر... ثم رآها ملطّخة الوجه بالدم فوق جثة زوجها الممدّدة على التراب في السهل، وقال بصوت مسموع: "يا له من حادث! كيف تجرؤوا وصوّبوا بنادقهم إلى تلك الجبهة الجميلة!"

أما حلم، فكانت صامتة كلّ ذلك الوقت وهي تفكر بكيفي استدراج العجوز إلى المزيد من الكلام الواضح غير المتقطع، لانها ادركت تماماً أنه يروي قصتها هي. "لن اتركهم يعرفونني ولكن ما السبيل إلى معرفة الحقيقة إذاً ؟" فكّرت وجال في ذهنها خواطر عديدة وأسئلة كثيرة، ولكنها حزمت أمرها وقالت بعد أن طال الصمت بينهم:

-تقصد ذلك الميتم الفرنسي، أليس كذلك؟

-كان الميتم الوحيد في تلك الايام حدّق في وجه حلم للحظات وظنت حلم أنه كاد يعرفها ويلفظ اسمها الحقيقي فسارعت إلى القول وهي تفتعل الابتسامة والتعالي:

-كنا نذهب إلى ذلك الميتم لنختار خادمة تساعدنا في شغل البيت.. فما كان إسم تلك الطفلة؟

-كان إسمها حلم... وحين اتفقنا أنا وزوجتي على إدخالها إلى الميتم عزّ علي أن أدخلها لقيطة، لأنها ليست كذلك، فأنا أعرف أباها وأمها وأعرف جيداً أنها ثمرة حبّ عظيم بينهما. وما اسمها إلا دليل على ذلك. عزّ عليّ أمرها وأردت أن أزوّدها بتذكرة هوية قبل إدخالها الميتم. هل كان عليّ أن أسجلها بإسمي؟ كانت القضية مستحيلة.. فقاطته حلم سائلة:

-وماذا فعلت؟ وتابع العجوز قصة أهلها، والكنّة تقول من وقت لآخر:"يا لها من قصة! لم يخبرني بها جلال أبداً. ويجيب جلال بانه ما كان يعرف كلّ هذه التفاصيل ويردّ بو جلال: "كنا قد نسينا هذه القصة، ولكن يا إلهي! ما الذي أحياها الآن؟" وتقول حلم "على كلّ حال إنها قصة غريبة، كأنها من نسج الخيال. ويصرُّ العجوز: "لا! لا! إنها قصة حقيقية تماماً، ويا ليت عندي الكلام الذي يسعفني على وصف ريم وجمالها وكاد يتابع: إنك تشبهينها أو إنك جميلة مثلها ولكنه استدرك في اللحظة الأخيرة وصمت إذ ان ملاحظة من هذا النوع ربما أغاظت كنتّه وأشعلت فيها غيرة الانثى. وتوجهت ح لم إليه اخيراً، بعد تلك المداخلات والاستفهامات، قائلة:

-وهل تمكنت من إعطائها تذكرة هوية بعد كلّ هذا الغموض؟

-يبدو، يا ابنتي أنّ الله مشيئة لا ندرك، نحن معناها، وأحياناً تكون المصائب والويلات وسيلة خير يستفيد منها بعضنا. وكما يقول المثل: لا تكره شراً علّه خير.

ضاق صدر حلم بكلّ هذه المقدمات، لكنها اصبرت وردّدت بعض كلمات التقدير لأقوال العجوز لتجرّه إلى متابعة الموضوع. وقال:

-حين أوصلتها إلى الميتم، أفهمت المديرة أنها ليست لقيطة وأن لها تذكرةهوية، وأهلها معروفون وبأني سآتيها بتلك التذكرة سريعاً لأنني نسيتها في البيت. وعدت أفكر في الموضوع، ولكن الوقت كان يمر وأنا لا أدري كيف أتدبّر الأمر إلى حين طلبت منا الدولة، نحن المخاتير في القرى، أن نزودّها بسجلات نفوس، لأن السرايا في مركز القضاء قد احترقت بسبب أحداث اليمة. وهذه الاحداث، قال متوجهاً إلى ابنه، لا تذكرها جيداً، كنت ما زلت صغيراً، ولكنها

هزّت الوطن بكامله، كانت عنيفة... ولكن المهم أن السرايا احترقت، واحترقت كلّ محتوياتها وبالطبع احترقت السجلات الرسمية وكان لا بد، بعد أن هدأت الأحوال، من سجلات جديدة مبنية على احصاءات جديدة حول أسماء وعدد سكان القرى التابعة لذلك القضاء المنكوب وهكذا تسنّت لي الفرصة بأن أسجّل حلم. ولكن المشكلة كانت في إيجاد إسم العائلة، ولكني وجدت الحل، يومها، وسجلتها بالاسم الذي كان يُكنّى به والدها رضى. كان الناس ينادونه "رضى الراعي". وهكذا أصبح اسم الطفلة: "حلم الراعي" على تذكرة الهوية التي سلّمتها إلى مديرة الميتم. ولكنها، تلك المديرة لم تسمح لي برؤية حلم، فامتثلت لأمرها، بعد أن اطمأننت منها على وضع حلم، من دون أن أفهم قرارها هذا المعلّل بما أسمته قانون الميتم.

-ولكن بحسنتها استفاد آخرون. ألا تعرف رشيد الشحاد، فاضل الحلاق، سمير المبيّض وسليم الحداد و ... كلّ هؤلاء أتوا ضيعتنا هرباً من المجاعة والظلم. وأنا من سجلهم في سجلات القيد،كما فعلت بحلم، وأعطيتهم أسماء المهن وأسماء الكنيات التي كانوا يُعرفون بها عندنا كأسماء عائلات. ولكن أعترف الآن إني ظلمت رشيد الشحاد، ظلمته فعلاً. لقد سمي هكذا في البداية لأنه كان فقيراً جداً وكلّ الناس كانوا يعطونه حسنة، ولكنه الآن وعلى الرغم من تقدم سنه، يأبى أن يأخذ حسنة إلا مقابل عمل يقوم به. ولكن اسمه بقي على حاله وان كان في الواقع غير صحيح.

"تذكرة هوية وناي عتيق هما كلّ ذخيرة الماضي، قالت حلم لنفسها، عندما تسلّمتهما من المديرة، شعرت بأن التذكرة لا تعني لي شيئاً إذ فكرت بأنها تتحمّل الخطأ والصواب معاً. والآن تأكدت من صوابها. أما الناي فلم أشعر حياله بالشعور نفسه. حين لمسته أحسست أن لي تاريخاً وأن لي جذوراً شريفة، قرأت الزمن عليه، وحين نفخت فيه، للمرة الأولى، عدت طفلة في حضن امها. شعوري ذلك، لم يكن مبنياً على تمنيات غامضة، كان مبنياً على ذاكرة ضبابية. ما هذه الصدفة وماذا تعني؟".

ولكنها ما عادت تدري كيف تتصرّف؛ هل تلحُّ عليه لمعرفة المزيد الآن وقد تيقّظت كلّ حشريتها، أم تؤجل الموضوع إلى وقت آخر؟ تؤجل ! لأنها ما عادت تستطيع أن تتحمّل أكثر. فقالت:

-قصة جميلة على كلّ حال، لكني أستأذن الآن، لقد تأخرت على ابني.

وانصرفت وهي تفكر بكلّ ما قاله العجوز. وحين دخلت بيتها توجّهت إلى الناي ونفخت فيه لفترة طويلة بالقرب من سرير فادي، نفخت فيه كأنها تكلّمه، كأنها تفهمه أنها الآن تعرف قصته. تنفخ، وبو جلال يسمعها ويتذكر ويقول لنفسه:

"من أين لها هذا الناي ولماذا اصرارها على النفخ فيه؟ هل شبهها بريم هو الذي ايقظ عندي ذلك الماضي وجعلني أسهب في سرده كما فعلت؟ هل هي حلم؟ كيف لي أن أعرف الحقيقة؟ هل جننت؟ لقد قالتلي إن اسمها "لولو الشمساني" فماذا يجري لي؟ ثم إني م ألاحظ أي انفعال على وجهها وأنا أروي قصة رضى الراعي، كانت تستمع ببرودة وكأنها لا تصدق أقوالي أو كأنها تنسب تلك القصة إلى نسج خيالي. إنها من العاصمة، وأهل العاصمة لايعرفون جيداً بقصص الضيع، ربما اعتبرونا متخلّفين، نعيش على الاساطير والخرافات!

-35-

سمعت حلم من رواية بو جلال أن دم رضى وريم لم يذهب هدراً وأنه لا زال يمدُّ توت ذلك العليق بلونه الاحمر. إنه يؤك أن كلّ أسوار البساتين في الضيعة تشكّلت بعد مقتلهما، وإن لهذه الاسوار من العليق الكثيف معنىً إذ أه يصعب جداً اختراقها. "حتى الكلب لا يستطيع النفاذ منها من دون أن تسيل دماؤه، حتى النار لا تؤثر فيها والفصول لا تغيرها، فهي دائمة الاخضرار!" هل جرتني رائحة الدم هذه إلى اختيار هذه الضيعة من دون سواها؟ كنت أظن أن القصص التي كنت أقرؤها هي من نسخ خيال الكتاب لأنها كانت أحياناً لا تصدّق. لكن يبدو أن الخيال، مهماً أبدع، يبقى بعضاً من واقع هو الأغنى. والصدفة؟ تلك التي كنت أظنها مفتعلة في الروايات، ليست إلا نقلاً لما يحدث في الحياة. وقصتي هذه، لو كتبت، لظنَّ القارئ أنها من وحي الخيال، ولكنها واقع فعلي... توقفت قليلاً وراودها الشك: ولكن هل هي حقاً صحيحة؟ وهل بو جلال صادق في ما يقول، أو انه يمزج بين واقع معين وشطحات خياله، أوانه يعبئ فجوات ذاكرته عن حدث بسيط، بتركيب قصة لها انسياب منطقي على الرغم من غرابتها؟ وهل يعقل أنه قبل وجود رضى وريم، هكذا لوجه الله من دون أن يتأكد من هويتهما؟ ولكن وصفه لريم يوحي بوضوع أنه أغرم بها ولربما كان هذا هو السبب الذي دفعه إلى القبول بهما على الرغم من كلّ الغموض الذي كان يلف حقيقتهما. ثم إنه من غير المعقول أن تنتظم التخيّلات في رأسه بشكلّ يتطابق مع كلّ المعلومات الواردة في تذكرة هويتي. إنه، حتماً، لا يكذب، لكن نظرته إليّ كانت توحي بأنه عرفني، هل يحدس بأنني حلم؟ هل تقصّد سرد تلك القصة ليراقب انفعالاتي؟ ربما! ولكنني لم أظهر أي شيء يجعله يتعرّف إلى حقيقتي ... ولكن وصفه لريم جعلني أعتقد أنه يصفني أنا، هل

تعمّد ذلك الوصف؟ هل البس ريم تلك الصورة وأسهب في وصفها كي أفهم منه أنه معجب بي؟ مالي ولاعجابه، لقد تخلى عني ورماني في الميتم وهو يعتبر أنه أنقذني من إستبداد زوجته. الأمر دائماً كذلك؛ نعتبر أننا نقوم بعملية إنقاذ، ونكتشف، بعد فوات الأوان أننا أخطأنا. حين عرض وفيف على السيد وجيه والست عفاف أن يقيما في أحد الاجنحة في القصر القديم لأن السيد وجيه لم يعد يملك شيئاً لا مالاً ولا أولاداً، أنا نفسي أعتبرته المنقذ ولهذا السبب قرّرت الزواج به، تزوجته من غير ميل أو حب، فقط لإنقاذ حالتي وحالة ابني فادي. ما الذي حدث ليجعل منه بطل الإنقاذ في تلك المرحلة؟ هل ماله الوفير كان كافياً ليجعل منه قدراً محتّماً وهل الفقر آفة حقاً، ترمي من يبتلي بها في أحضان من يعم به ليحوّله إلى كائن فاقد الكرامة وعزّة النفس؟ لا! لقد هرب والدي مع حبيبته وترك أموال أبيه، كما روى بو جلال، وفضّل العيش من عرق جبينه كي ينقذ حبه لها، كي ينقذ ما يعتبره حقه في الحياة، ولكن قدره كان ظالماً. والظلم استمر ليصبح قدري. لا! أنا ابنة حب كبير وحقيقي، لن استسلم للقدر بعد الآن لقد أسلمته أمري طيلة حياتي، أمّا الآن فلا!

نظرت إلى إبنها وصرخت به أن يتحرك كي تعود إلى ذلك البيت وتسترّده من وفيق الذي امتلكه من دون عنف، بحجّة إعماره وكأنه يضحّي من أجله. "لا يعرفه أحد سواي. لقد اختبرته واكتشفت دوافع ليونته الحريريّة، تلك الدوافع الخفية التي تظهر للآخرين وكأنها بريئة من كلّ غاية. لا! لن أسمح له، لن أسمح لذلك الرجل الذي لا يحمل ذاكرة عن ذلك البيت بأن يتحكم به ويمتلكه. إنه لإبني فادي، فهو إرث أبيه بشّار. وبشّار هو الوحيد الذي أنقذ حياتي من الضياع والتشرد والتسيب، جعل مني سيدة بكل معنى الكلمة، بعد أن كنت فريسة لكلّ طالب لهو ولكلّ شاذٍ ولكلّ عابر سبيل! لن أنساه، ولن أترك وفيق الذي يعبث الآن كما يريد، في ذلك البيت، أن يستمر في عبثه هذا، أن اتركه يبني قصره فوق أجساد بشّار وأجداده. ذلك التراب ملك فادي ابني! فادي هو حجّتي الوحيدة لاسترداد حقي وحقه." وافرغت باقي غضبها وهي تصرخ: "ولكن أين فادي؟ أين فادي الآن".

أفرغت غضبها وحاولت النوم. استراحت في سريرها، أطفأت النور وطمرت رأسها تحت اللحاف كي لا تعود ترى وتسمع شيئاً. أقفلت نوافذ الخارج، لكن الداخل ظلّ يعجُّ بالكلام، وعتمة الليل سمحت لكلّ أنواع الكوابيس بأن تطلّ بقرونها لتنقل حلم إلى زمن هو زمنها الكابوسي.

-36-

قُتل رعد حرقاً، وقُتل بشّار بحادث سيارة. قتلا وبقي السيد وجيه والست عفاف، ولكن بقاءهما بعد المصيبتين المتتاليتين حوّلهما إلى نماذج بشرية غريبة. فالست عفاف اتشحت بالسواد من رأسها حتى قديمها وأصبح همها، الظاهري، على الأقل، الانتقام من بو داوود لأنه تحوّل في نظرها إلى شرّ مطلق، كانت تتهمه بإفتعال الحريق يوم الحفلة. وهمها الداخلي، أن تطوّع وجيه وحلم وترغمهما على تلبية رغباتها التي أخذت منحى دينياً؛ فان صلّت طلبت من الجميع أن يصلّي وإن صامت فرضت الصوم على الجميع وإن رأت حلم مكشوفة الرأس أو الذراعين، نهرتها وفرضت عليها التستر. ألغت المشروب في البيت وكسّرت كل زجاجات الكحول، وحلم تتعجّب من ممارسات معلمتها وتتساءل عمّا حلّ بها وغيّرها. "لماذا استيقظ عندها الحس الديني فجأة؟ هل هي التوبة من ماضٍ يقلقها؟ لا! فهي لا زالت تمارس، الافعال ذاتها، مع حلم ومع أم سبع وأحياناً تقوم بممارسات تلك ضد أم سبع وكأنها تريد إفهامها بأن حلم لها وحدها وأنها هي التي تسمح أو تمنع غيرها من الاقتراب منها، وأمّ سبع تسايرها، تغازلها احياناً، وأحياناً أخرى تنهره وتهدّدها وتستعملها لأغراضها الخاصة؛ تستدرجها أم سبع ويعلو صوت الست عفاف التي تعيّر زوجها وتهزأ به لأنه يصادق بو داوود. ويرتفع صوت السيد وجيه في وجهها لينعتها بالمجنونة لأنها تسمح لأم سبع وأولادها بأن يملو عليها رغباتهم وقراراتهم: "أنت آلة في يدها، ليس لك قرار مستقل وترددين، كالببغاء، كلّ ما تسمعينه منها". وتحمل حلم ابنها فادي وتدخل غرفتها، كي لا تتدخّل بأمور لا تعنيها، ولكن تلك الامور كانت تعنيها وتؤثر في وضع ابنها الذي كان بحاجة إلى عناية كبيرة كي يخرج من صدمته ويعود ولداً طبيعياً ومعافى كما وُلد وفرحت به.

الحالة تلك، في بيت السيد وجيه، كانت قد بدأت قبل مقتل بشّار، وهي التي دفعته إلى إتخاذ قراره بالزواج بحلم والسفر معها إلى الخارج كي ينقذها ويقذ نفسه من ذلك الجو الذي أصبح، في نظره، هستيرياً. ولكن سفره مع حلم وزواجه بها جعلا والديه يكرهانه؛ لقد حرمهما من حلم التي، بعد زواجها الرسمي أصبحت له وحده. عاشا مدّة طويلة في الخارج، مدّة، كانت أسعد أيام حلم. وفترة حملها، وعلى الرغم من صعوبتها، كانت تجلب لها الفرح والسعادة وتشعرها بأنها تقوم بعمل، ربما كان من نتائجه إنقاذ ما تبقى من ذلك البيت المشؤوم. كانت حلم تعتقد أن عودتهما مع طفل سيغير حالة الأم والأب معاً، سيصبح ابنهما، املهما وسيتسابقان على تدليله وإعالته لأنه حفيدهما الوحيد وأمل المستقبل بعد ذلك الماضي الأليم.

ولد فادي، بعد تعثّر، وغمرت الفرحة قلب بشّار وأصرّ على العودة السريعة؛ كان يظن أنه امتلك الاداة التي يسكت بها، كل تناحرات والديه. كان يحلم

بحياة هادئة لا يتدخّل فيها أحد من الخارج ويصفو الجو كي يؤمّن لفادي أن يكبر ويتعلّم ويستلم زمام الامور ويعيد البيت الى سابق مجده. وكلّما وصل بشّار إلى هذه الفكرة كان يقول لذاته: "سأعرف كيف أربيه كي يعمّر البيت على أسس صلبة، لا كما كان بؤرة فسادٍ تغطيها قشرة من الذهب اللماع".

"عدْنا وليتنا لم نعد! فما أن دست عتبة ذلك البيت المهدّم، حتى شعرت بكرههما لي ولابني. لم يغمراه بالحنان كما كنت أتوقع بل أهملاه كأنه غريب. وصمت أمّ سبع، لم أفهمه يومها: نظرت إلى الطفل ولم تعلّق، لم تهنئنا به، بل قالت كلمات تنم عن رفضها له: "إنه لا يشبه أباه، فهو صورة عن أمه." قالت ذلك وإبتسمت إبتسامة لئمية وهي تنظر إلى الست عفاف. ماذا كانت تعني بكلامها؟ هل كانت تريد إفهام الأهل أن فادي ليس إبن بشّار؟ هل كانت تقصد زرع الشك في قلوبهم؟ لست أدري ما كانت نواياها الحقيقية. ولكن ما أعلمه جيداً هو أن ما كنت أنتظره من الجديّن لم يحصل؛ عاملا الطفل بجفاء كأنه غريب عنهما. وكان بشّار يبالغ في تغنيجه والاعتناء به، ربما ليُفهمهما أنه ابنه حقاً. ولكنه لم يستطع الوصول إلى غايته إذ وقع ذلك الحادث المؤلم حيث تحطم جسده كما احترق جسد رعد من قبل. "هل كان الحادث مفتعلاً؟ ومن افتعله؟ هل كان فادي هو المقصود؟ لست أدري ولكن فادي نجا بأعجوبة".

-37-

"نجا باعجوبة صحيح ولكنه الآن كالميت. هل أفقد الأمل؟ وإن فقدته فماذا يبقى لي؟ هل أستسلم وأترك كلّ احلامي التي بنيتها على وجوده؟ ولكن ماذا أستطيع أن أفعل، وهو في غيبوبته هذه يضعني أمام المجهول؟ وها هو وفيق يهدم ويعمّر على هواه، لا أحد يردعه عن شيء. ما هذه السطوة للمال؟ هل أصبحنا في زمن قانونه الرضوخ لمن يملك الثروة؟ والثروة، كما علمني بشّار، لا تبنى الا بالسرقات ولا تنمو الا بدماء الضحايا المساكين؟ وأم سبع وأولادها ماذا يفعلون؟ هل اشتراهم، هم أيضاً، السيد وفيق ؟ هل أسكتهم بماله؟ هل كان متواطئاً معهم في العمل على تدهور حالة فادي؟ لست أدري حقاً! لكنه وهو صاحب وكالة الدواء الذي كنت بحاجة إليه لعلاج ابني، كان يمارس علي لعبة دنيئة، يخبّئ الدواء لفترة ويجعلني أرجوه أن يؤمنّه لي، فينتظر حتى تصبح حالة فادي متدهورة جداً، ثم يعطيني الدواء بأغلى الاسعار. ما كنت أبالي، يومها بسعره، كنت مستعدة لكلّ التضحيات من أجل إنقاذه. ولكنها لعبة استمرت طويلاً حتى استنفذتُ وأصحبتُ رهينة بين يديه القذرتين. ما هذه المتاجرة الرخيصة بالمشاعر وبأرواح الناس؟

يوم قالت لي أم سبع: "إما وفيق أو تفقدين ابنك وتموتين من الجوع، فماذا كان بمقدوري أن أفعل أمام هذا الخيار الصعب؟ لو كان الامر بتعلق بموتي من الجوع لصمدت، لكن حالة ابني أرغمتني على الرضوخ. أسكتُّ مشاعري وكتمت حقدي وحاولت أن اعيش الامل الوحيد، أمل أن أرى فادي بصحة جيدة تمكنّه من النمو كما كان يتمنّى له ذلك بشّار. كنت أضحّي بحاضري على أمل أن المستقبل سيغيّر كلّ شيء؛ فترة أمل أنستني حتى بشّار. قصور من ورق بنيتها في خيالي كي أقنع نفسي بما أفعل. تحمّلت كل الأقاويل والثرثرات وسمعت الكثير عن زواجي بوفيق ولكني تجاهلت كلّ ذلك وأقفلت أذني عن كلّ ما سمعت، وباركت أمّ سبع زواجنا ورضيت عني وخفّفت زياراتها لنا، أصبحنا نحن من يزورها في بيتها ويطلب رضاها دائماً. وتحوّلت إلى حلالة المشاكل في بيتنا إذ أن وفيق كان يلجأ إليها في أي موضوع يريد تنفيذه أو في أي صراع بيننا. كنت، في داخلي أكرهها وأريد التخلص من سطوتها ولكن أولادها ظلوا شبه مقيمين معنا، هل كان هناك اتفاق سرّي بينهما؟ هل كان استمرارهم خطة مدبّرة من أم سبع لكي يظلّ وفيق تحت سيطرتها دائماً؟ هل كانت إقامتهم شبه الدائمة معنا ومسايرتهم لوفيق عملية إبتزاز لثروته؟ كنت أسأله وكان يجيبني:

"لا أستطيع ولا أريد، لأن وجودهم ضمانة لي ولك يا حبيبتي. إنهم يحموننا من أي إعتداء".

"كنت، حين أسمع هذه الكلمة أستنفز لأني أعرف مشاعري نحوه. فانا ما كنت أحبه، وكنت أعلم، جيداً أنه لا يحبني ولا يحب فادي. ولكني كنت أحاول أن أجعله يطمئن لحبيّ له. هل كان يصدق كذبي هذا؟ يا إلهي كم الانسان غريب الأطوار؟ كان يصدّق، ذلك المغرور أو إنه كان مرغماً على التصديق لكي يستطيع الاستمرار في إمتلاكي وإمتلاك ما أمثل. أين الحد الفاصل بين الحقيقة وبين اللعب في ممارسات حياة الفرد؟ هل الانسان حقيقة ذاته أم دور يقوم به كي يقنع ذاته بما ليست هي؟".

-38-

طلع الفجر وطلعت حلم من ذاكرتها، أخذت الناي وعزفت لحناً حزيناً متقطعاً كأنه نداء استغاثة، وسمع بو جلال العزف وبكى قلبه لهذا النغم المؤثر، قام من على كرسيه، توجّه إلى الحديقة،لملم بعض الزهور، جعل منها باقة وضيعة وسار نحو بيت حلم. لم يفكر بما سيقال عنه ولو شُوهد يحمل الزهور اليها، لقد

تقطّع قبله على تلك المرأة اليائسة وأراد أن يعبّر عن شعوره نحوها، فما وجد إلا الزهور كلاماً.

قدّم لها الباقة. كانت عيناها مبللتين بالدموع. لم يسألها، ولم يدخل بيتها. سلّمها الزهور وأنصرف. كلاهما لم يشعر بضرورة الكلام. لم تقل له إلا شكراً، أما هو فقد هزَّ برأسه وعاد إلى بيته وذكرياته.

أقفلت حلم الباب. الباقة بيدها. زهور صغيرة ملوّنة. أجمل هدية استلمتها في حياتها. تنشّقتها واسترخت على مقعدها، رأسها مسنود إلى يد والباقة في اليد الثانية. وتحوّلت الباقية الصغيرة إلى جنّة من الألوان، تلك الجنة التي رأت نفسها فيها حين عادت إلى البيت مع بشّار بعد ولادة فادي. ملأ البيت بالورود من كل الألوان وأدخلها وهو يحمل فادي بين ذراعيه. "سعادتي لا توصف". قال لها وهو يقبّلها. وهكذا قال لها وفيق حين تزوّجها وقدّم لها ذلك الخاتم الضخم من الماس البرّاق الذي يبهر العيون.

"قدّم لي وفيق أثمن الهدايا ولكنه لم يقدّم لي، يوماً زهرة. كلّ هداياه كانت تشعرني بالاستلاب. كنت أحاول تجاهلها وكان يصرُّ على أن أتزين بها دائماً، حتى ولو كنت وحدي معه في البيت. كنت أشعر بالاستلاب فعلاً، وهذا الشعور لم يكن كاذباً إذ أني كنت ألاحظ أن وفيق لا يرى يدي فعلاً إلا حين تكون خواتمه وأساوره تزيّنها، فاسمع منه: "ما أجمل يديك!" عنقي الذي كان بشّار يعشقه، لم يسترع إنتباهه مرة واحدة إلا حين وضع حوله أحد عقوده الهدايا. حتى انه اشترى لي يوماً خلخالاً من الذهب المرصّع بالحجارة الكريمة، وحين عقده حول كاحلي،استقام وسبّح الخالق قائلاً: "كم هي جميلة سحبة ساقيك!" كم كنا بعيدين عن بعضنا، كان يحاول التقرب، وكلّما حاول شعرت بالبعد. كنت في عالم آخر. لم يستطع إخراجي منه. همّي كان فادي وهمّه كان امتلاكي ووسيلته الهدايا الثمينة. كنت وأنا أسايره، أكنُّ له البغض والكراهية لأنه ثابر على ممارسة لعبته الوسخة مع علاج فادي. صحيح لم أعد اشتري الدواء منه كما في السابق، في عملية الابتزاز القذرة، ولكنه كان دائماً ينسى أن يطلب الدواء، في الوقت اللازم. كان عليّ، دائماً، أن أذكره بذلك وكانت دائماً حججه هي هي : "إنه مفقود وعلينا الانتظار." والانتظار كان عملية إماتة بطيئة لفادي، الذي، وبعد فترة انتظار من تلك الفترات، دخل في الغيبوبة التي هو فيها الآن. سارع، وقتها، وفيق لايجاد الدواء الذي حض من دون تأخير، ولكن السرعة تلك بعد فوات الاوان، لم تسعف، لأن الدواء – العلاج، كان قد فقد مفعوله المعتاد.

"هل أحمّل ضميري الآن وأنا أتهمه بأنه هو الذي أهمل فادي وأوصله إلى هذه الحالة؟ لا! لا أحمّل ضميري؛ لقد قرأت الفرح في عينيه حين غاب فادي، ولمست نواياه الخفية حين طلب منّي أن أنجب له! وهل أنجب لشخص ما أحببته يوماً وما تزوجته إلا مرغمة؟ لم أقل له شيئاً يومها ولكني كنت ألجأ إلى وسائل منع الحمل من دون أن يدري. كنت أمارس الجنس معه كما تمارس الآلة عملها؛ عملية مقايضة تجاه إمكانية اهمامه بفادي".

-39-

خرجت حلم من ماضيها ونظرت إلى الزهور في يدها ورأت نفسها تضحك بصوت عالٍ كأنها مجنونة. لا! لم تجنّ بل عادت بها الذاكرة إلى استحضار جنون السيد وجيه في آخر أيامه، قبل أن يفقد بيته ويسكن أحد الأجنحة الصغيرة في الحديقة.

"حين عدت مع بشّار من سفرتنا، ومعنا فادي، شعر السيد وجيه أن وجوده أصبح زائداً، بلا جدوى، بعد أن كان قد مارس نوعاً من الهستيريا تجاه أم سبع وأولادها قبل مجيئنا لأنه هو أيضاً إتهمها بإفتعال الحريق في تلك الليلة. أخبرتني الست عفاف: "إنه فقد صوابه السيد زوجي؛ كل كلّ للة، في غيابكم، يجمع بعض الاصحا ب، في البيت، وتتحوّل الساحة إلى نوع من الهرج والمرج والتعريص، إذ أنّ لا أحد يعود يعرف من يدخل بمن، وتعمر السهرة على أنغام موسيقية طنانّة. كان السيد المحترم، يضع قبّعة تراثية على رأسه، ينزل إلى الحلبة، ويدبك مع الأصدقاء الذين كانوا يرمونه بالزهور ويهتفون بحياته كالمهسترين. ينتشي وجيه كما لو أنه مارس الجنس مع مومس، يحيّي الجميع بكلّمات رنّانة، يشتم أم سبع وأولادها، ثم يضع إكليلاً من الزهر على رأسه وينام في ملجأ البيت بعد أن يُقفل أبوابه ونوافذه جيداً.

"صدّقت كلام الست عفاف، لأن السيد وجيه تابع جنونه بعد مجيئنا. كان بشّار يسايره محاولاً ردّه إلى عقله ووعيه وهو يرفض ويصّر على موقفه. لقد تحوّل جنونه إلى كره لأم سبع وأولادها وإصراره هذا أدّى إلى تحمّل أقسى ما تحملّناه في كلّ المراحل السابقة.

"وحين فشل في تحطيم صداقة أمّ سبع والست عفاف جرّه جنونه إلى عمل آخر، فتوجّه نحو أصحابه، نحو الذين كانوا يتجمّعون عنده ويهتفون له، وشتم من كان، في ذلك الحين، يمثّل قيادتهم وحمّله مسؤولية فشله لأنه لم يكن وفيّاً في

العمل، وهكذا، ومن دون سابق إنذار، وجّه مسدسه نحو هذا الرجل ورفاقه وأطلق عليهم النار، واتهمهم بأنهم يريدون احتلال بيته هو الذي لم يعد يملك من البيت إلا الجناح الصغير الذي سمح له وفيق باشغاله، فما كان من الآخرين إلا أن جيّشوا انفسهم ضدّه ودرات معارك داخل البيت، في جناح السيد وجيه ، معارك أدت إلى تهديم كلّ ما بقي واقفاً إلى ذلك الحين.

"حاول بشّار الكثير، عبثاً، مع أبيه، فلجأ إلى الصمت وانعزلنا أنا وأبني معه. في جناحنا.

"كان بشّار يردّد، دائماً، أنه لا يريد استعمال العنف مع ابيه لأنه فقد صوابه وكان يحاول، دائماً، كلّ الوسائل اللينة معه كي لا يصل إلى ... لكنه اضطر إلى ذلك وحدث ما لم يكن يتمناه إطلاقاً؛ فأمام عناد السيد وجيه ومتابعته لاستعمال السلاح بوجه كلّ من يعارضه، لم يجد بشّار إلا فكرة نقله إلى المستشفى الأمراض العقلية وبدأ يهددُ بها... لكن بشّار قبل بذلك الحادث. وماذا كان باستطاعتي أن أفعل؟" رأت نفسها تقول هو تنظر إلى الزهور في يدها.

-40-

نهضت من مكانها وأتت بمزهرية صغيرة، ملأتها بالماء، صفقّت فيها الزهور وخرجت إلى الشرفة. كان النهار لا يزال في بدايته وأشعة الشمس الخجولة تنير أعلى أغصان العليق الذي يسيج الضيعة؛ عقد أخضر دافئ، أو إكليل من غار وُضع تاجاً على هامة تلك التلّة المنتصبة في سفح الجبل كأنها تتحدّاه. "هذا العليق، لا يذبل ولا يؤثر فيه الشتاء والطقس البارد، هو دائم الاخضرار ودائم الثمار". هكذا قال بو جلال في روايته عن سرّ ذلك العليق الذي نبت بعد مقتل رضى وريم. "إنه حتماً لا زال يرتوي بدماء والديَّ، شقائق النعمان أخذت لونها من دم أدونيس، كما قرأت في الروايات فلماذا لا يكون قول بو جلال صحيحاً؟ إنه صحيح! وإلا لما كنت احسست بتلك الالفة بيني وبين هذه الضيعة التي جذبني إليها سياجها الاخضر!" صمتت، شاردة كانت، نظرها على العليق وفكرها يتنقّل باستقلال عنها؛ "سافعل" قالت، ثم دخلت إلى بيتها تبحث عن عمل يخرجها من تخابط أفكارها. دارت في البيت ترتِّب وتنظف و ... "أين المفرّ من الافكار السوداء وفادي على حاله ووفيق يحتل بيته ويتصرّف به كما لو أنه ملكه!"

تمدّدت على كرسي قبالة ابنها وأخذت تنظر إليه، تتأمله وتتذكره كيف كان قبل مرضه؛ أمل أبيه وأملها كانت ضحكته، أول خطوة قام بها كانت عيداً لا

يضاهيها عيد، أو كلمة، أو بالأحرى أول حرف نطق به كان أفصح من كل اللّغات! "هل أدفع الآن ثمن سلوكاتي الماضية؟ ولكن هل كان بإمكاني ألا أفعل؟ "بيتي كرخانة الزوات، سأجعل منه أفخم كرخانة في المنطقة". سمعت السيد وجيه يقول وهو يداعبها ويناديها: "لولو، ولولو هي التي ستشرف على تلك الكرخانة". هل يتذكّر الآن، أقواله تلك؟ أمّا هي الست عفاف، فكم كانت جميلة ومثيرة وكم اشتهاها الرجال! وأنا، تلك الدمية المرميّة بين أيدي كلّ من أراد أن يتسلّى ويُفرغ شهواته!" نظرت إلى ذاتها؛ "لم يبقَ قسمٌ واحدٌ من جسدي إلا وانتهك بممارساتهم الشيطانية الغريبة، كلّها كانت سهلة بالنسبة إلى ما كان يفعله ذلك القذر، إبن أم سبع، الذي كان لا ينتشي إلا حين يفرغ في فمي!" بصقت وقامت منتفضة، بصقت، من جديد، كأنها تتطهّر رمزياً من ماضيها، وخرجت بسرعة من غرفة ابنها كي لا يكشف سرّها ويقرأ أفكارها وذكرياتها، ولأول مرة، لم تزعجها غيبوبته. وحين وعت هذا الشعور الأخير في داخلها صرخت كأنها تخاطب شخصاً آخر: "لا! فليعش،ويرَ كل قذاراتي،أنا من سيخبره كل شيء، أنا من سيعترف له، سيغفر لي حتماً وهكذا سأخرج من كابوسي. ولكن أين هو الآن؟ أنا أيضاً كنت في غيبوبة عن ذاتي، في ذلك البيت، لا! لم أكن في مثل حالة فادي، بل كنت غير ذاتي، أداة فقط، لم يشعر أحد، منهم، يوماً أني إنسان ولي كرامتي ووجودي. كلّ واحد نهش مني على هواه. أما بشّار فلا! هو الوحيد الذي كان يعاملني، ومنذ البداية، كإنسان. كيف استطاع ذلك وهو الذي كان يعلم بكلّ ما يحدث معي؟ لم يقترب مرّة، مني، إلا بحنان وخفر: "لن أدنسّ جسدك برغبتي الآنية، ستكونين لي و لي وحدي." وكنت أضحك في سرّي حين اسمعه يقول ذلك؛ هل كان في جسدي مكان واحد لم يدنسّ بعد؟ ولكنه أفهمني يوم زواجنا أنه أول من يدخلني بحب ولهذا السبب هو أول رجل في حياتي. لم أجسر، يومها على قول أي شيء، كنت مخجولة من ذاتي. وأدرك خجلي وقال: "المرأة لا تُخترق إلا بالحب وأي اختراق آخر لها، هو اغتصاب ولهذا السبب أقول لك إني أول رجل في حياتك وأنت المرأة الوحيدة التي أحببت وأحب وسأحب مدى العمر". كم كان عمره قصيراً! ولكني، خلاله تعلّمت معنى الحب الحقيقي، تذوّقته وتمتعّت به وعشته بكل أبعاده، ونسيت مع بشّار، حقاً نسيت، كلّ حياتي السابقة، وعدت معه إلى البيت لأسخر من كل الذين سخروا مني وحولوني إلى آلة، أشعرني بأنني سلطانة أمام أنذال... وتلك الابتسامة على ثغره كم أشعرتني بالأمل، كم جعلت منّي أسعد إمرأة في العالم! هل قتل لكي يستباح جسدي من جديد؟ نعم! لقد اشترى وفيق الجميع بماله، أسكتهم عني واستفرد بي. كان ينام معي وكنت فعلاً أشعر بأن الجميع يُفرغ في جسدي. كنت أشعر معه بالاستلاب كما في السابق مع كلّ الآخرين. ومع ذلك كنت مستعدة لتلبية كلّ رغباته كي أنقذ ابني، وقول بشّار ماثل أمامي: لا تُخترق

المرأة إلا بالحب وحب فادي كان الحب الوحيد الذي يسكنني وحب بشّار الحب الوحيد الذي كان يخترقني . وفيق كان وسيلة، لا بد منها، وهذا ما شعرت به حين قبلت به زوجاً. وأي زواج؟ هل أدرك إني لا أحبه؟ هل قرأ أفكاري وتخطيطاتي، فأهمل فادي وأوصله إلى حالته هذه؟ ربما! ولكن، وهو الرجل الناجح جداً في أعماله، هل كان غبياً لكي يعتقد إني أحببته؟ أم ان الرجال يعتبرون أن الزواج صفقة تجارية كغيرها؟ وأن المرأة سعلة يفعل بها ما يشاء ويعرضها، لكي يعرض، بواسطتها ثروته وماله؟ هذا ما كان يحاوله وفيق إذ أنه كان يتبجّح بهداياه ويفتخر، أمام أصحابه، بأنه دفع المبلغ كذا لخاتم أو سوار أو عقد أو ... كنت أتزيّن به نزولاً عند رغبته. يمسك بيدي، يرفعها أمام زائره ويسأل: " هل تعلم كم دفعت ثمن هذا...؟" كم كنت أشعر بالذلّ وكم كنت أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني أمام نظرات زوّاره التي كانت تقول بأنني مومس. وهل يزول البغاء بالزواج؟ لا! وألف لا! لم أشعر بنفسي هكذا إلا حين كنت زوجته الشرعية. لم ينتابني ذلك الشعور سابقاً حين كان الكلّ يمارس رغباته عليّ. كنت، حينها، مرغمة، مسلوبة الارادة، ضعيفة، لا أستطيع الرفض ولا القبول، أما معه فقد بعت نفسي حقاً. لا! بعت جسدي، كنت اتركه يتمتّع بجسدي وأنا أفكر ببشّار؛ يضاجعني وأنا أضاجع شخصاً آخر. كان ينتشي كالوحش وأنا أكون في أحضان بشّار، ولا أنتبه إلى ذاتي إلا حين أسمعه يصرخ ويقذف روحه مع منيه. أستفيق من غفوتي اللذيذة المؤلمة وأدرك أن العذاب قد انتهى وأسرع إلى الحمام للاغتسال. كنت أشعر بضرورة الإغتسال تلك كي أطهّر جسدي منه. ولكنه كان شرهاً،وبنيته القوية تسعفه. لقد أهلكني فعلاً! وأنا أقبل بذلك ولا أتمنّع إلا حين ينتهي دواء فادي، أتمنّع وأفتعل المرض والتعب كي أرغمه على تأمينه، فيؤمنه ويعود إلى ممارساته المقرفة. كنت، حقاً، مومساً معه. هل سيغفر لي فادي؟ ليته يخرج من حالته ويلعنني، ليته يخرج من غيابه ويفعل ما يشاء بي. ولكن من أين لي هذه النعمة أنا التي كُتب عليها أن تدور، دائماً، في مزبلة من الأفكار والذكريات، في مجرور من نفايات الرجال والنساء معاً، تكفيراً عن ذنب لم اقترفه بل حمّلتني إيّاه أيامي على الرغم منّي. لماذا؟ لماذا؟" لماذا؟ لماذا؟ سمعت نفسها تصرخ بصوتٍ عالٍ. استفاقت وصمّمت على الخروج من البيت كي تخرج من دائرة أفكارها. أين تذهب؟ أقرب مكان هو بيت جيرانها، بيت بو فارس. خرجت إلى الشرفة وتنصّتت، لم تسمع حساً. أين هما؟ رتّبت هندامها ونزلت السلّم. الباب مقفل على غير عادته. إنهما حتماً خارج البيت. تردّدت قليلاً وهي على آخر درجة من السلّم، ثم قرّرت العودة إلى بيتها واستدارت لتصعد من جديد، وإذ بصوت كنّة بو جلال يأتيها: "ست أم فادي، تفضلّي، القهوة ما زالت ساخنة". فرحت حلم بهذه الدعوة وقبلتها بدون تردد لأنها ما كانت تريد العودة إلى ذاتها.

حين دخلت عليهم ورأت بو جلال، شكرته من جديد على هيدته الصباحية:" إنها الآن تملأ البيت عطراً جميلاً." قالت له وهي تضع يدها بيده. "لا تشكريني، يا بنتي، فهذه الزهور منّة من الطبيعة علينا. فهي ثمارها في هذا الفصل، تنبت كلّ صيف وكأن جذورها وُضعت، منذ الأزل، ولمرة واحدة، في التراب، وستبقى حتى النهاية كأنها تتوالد من ذاتها... الطبيعة، حقاً، كريمة... فشكراً لها هي".

-الطبيعة كريمة نعم، ولكنها، أحياناً، تكون بخيلة جداً، قالت حلم كأنها تخاطب نفسها، وقبل أن تتابع أجابها بو جلال، هو الذي يعرف ماذا تقصد:

-إنها دائماً كريمة، وحده الانسان، حين يتدخّل في شؤونها يعدّل في مسارها ويفسد الأمور، وكاد يعيدها إلى ذاكرتها، لكنها أبت العودة وغيّرت الموضوع نهائياً وتساءلت أين مكن أن يكون بو فارس وزوجته في مثل ذلك الوقت. وأجابها بو جلال: إنهما عند الست صباح يهنئانها بالمولود الجديد. ثم توجّه إلى كنتّه وسألها متى يعود جلال من السوق كي يذهبوا، هم أيضاً، لزيارة الست صباح. ومن دون أن ينتظر جوابها استدار نحو حلم وقال: "تذهبين معنا حتماً، وقبل أن تفكري بالموضوع سأقول لك إننا في هذه الضيعة، وكما صرت تعلمين الآن، نعيش كعائلة واحدة وشأن كل فرد يهم الجميع. أما الست صباح فهي أرملة، توفيّ زوجها وهي حامل، توفي وهو في ورشة عمار، وقع عن السقالة... هكذا... حادث غبي، مجاني، أودى بحياته، فرحل وترك الست صباح وحدها، في عزّ صباها... صمت قليلاً ثم تابع. ولكننا،كعادتنا، لا نترك الارامل يحتجن إلى شيء، وابن الست صباح سيكون ابن الضيعة بكاملها... كلّ الأولاد الذين لا أب لهم، نهتمّ بهم فلا يشعرون باليتم. والحمدلله، ففي ضيعتنا من الاثرياء والمكتفين ما يجعلنا نؤمن كلّ هذه الحاجات من دون أن نلجأ إلى مساعدة غيرنا. فالمدرسة، نحن بنيناها، والمستشفى نحن بنيناه و... وكلّ العاملين فيها هم من ابنائنا والحمدالله و..."

تابع بو جلال كلامه الذي ما عادت حلم تسمعه لأنه تركته حين سمعت منه: "لا أب لهم"، شردت في ذاتها تقارن بين وضعها مع ابنها ووضع الست صباح. هي اضطرت إلى بيع جسدها كي تؤمن ابنها، والست صباح، يحيطها الجميع ويحافظون على كرامتها وشرفها وانسانيتها...

-وابنك فادي، سيكون إبن الضيعة كلّها، سمعته يقول فعادت إليه لتقرأ الصدق في عينيه وقالت:

-إنه شرف لي ولابني أن نصبح من هذه الضيعة الطيّبة، ولكن...

-سيُشفى أنا متأكدٌ من ذلك، قال بو جلال وكأنه يرد على كلام سمعه منها من دون أن تنطق به. فابتسمت وسألته.

-هل توت العليق، في ضيعتكم، يؤكل؟ استغرب السؤال ولكنه أجاب:

-إنه أفخر أنواع التوت، وأراد أن يتابع ويسألها لماذا؟ ولكنه صمت وقرّر أن يأتيها ببعض هذه الثمار البرية، ليثبت قوله.

دخل الدكتور جلال وابنه، وانقطع بينهما الحديث، إذ ركض الطفل نحو جده الذي كان على كرسيه يبتسم ويفتح ذراعيه لضمّ حفيده الذي ارتمى في حضنه وهو يطوّق عنقه ويقبلّه قبل أن يجيب عن بعض الاسئلة التي أخذ الجد يطرحها عليه حول مشواره مع أبيه وبمن التقى وماذا اشترى له و... وحلم تنظر إليهما وتحاول أن تشاركهما فرحهما. تبتسم لهما وتبلع بريقها كي تكتم دموعاً كادت تطفر من عينيها، إذ أمام هذا المشهد السعيد لم يخطر ببالها إلا صورة ارتماء ابنها فادي في أحضان أبيه بوم كان ابوه ويوم كان هو. وبعد قليل، وقفت واعتذرت وعادت إلى بيتها إلى عالمها المغلق، إلى الساحة السوداء التي منها تنبعث كلّ حلقات الذاكرة المرعبة. حاولت ألا تفكر بالماضي، وأخذت تخطّط لنزهة بعد الظهر؛ تضع فادي مع عدّته في السيارة وتطوف به في جبال ووديان وسهول تلك المنطقة، معللة النفس، ولو خرافياً، بإمكانية تأثير العناصر الطبيعية فيه.

-41-

"أم فادي". سمعتهم ينادونها، إننا ننتظرك، هيّا". لم تعرف لماذا ينتظرونها. لقد نسيت، فعلاً، زيارة الست صباح، ولكنّها خرجت إلى الشرفة وقالت لهم: "إني آتية". وحين دخلت غرفتها تذكرّت، وأخذت تفكّر بهدية تحملها معها إلى تلك المرأة. وهل يُعقل أن تذهب اليها خالية اليدين! فتحت علبة صغيرة، نظرت إلى محتوياتها، ضمّتها إلى صدرها؛ انها بقايا من هدايا بشّار لها. إنها الذكّرى الوحيدة منه. "هل أتخلّى عن قطعة منها؟" نظرت مجدداً إلى داخل العلبة: هدية الزواج؟ لا! لا! هديّته يوم أنجبت فادي؟ لا! وألف لا! ثم هدايا بشّار لفادي في مناسبات عديدة؟ هنا دار في رأس حلم نوع من الحوار الصامت وسمعت صوت بشّار يقول لها: إهدي الطفل هذا السلسال"، رفعته بيدها، تأملته جيداً، ثم لفّته بورقة مرتّبة، وضعته في جيبها وخرجت.

"إنها هدّية من ابني فادي". قالت لهم، حين فتحوا الغلاف ورأوا السلسال. فساد الصمت للحظة، قطعه الجميع قائلين: "فليشفه الله!"

تأخر الوقت لكي تنفّذ ما قرّرت في النهار. "سأذهب غداً قالت لنفسها وهي تدخل بيتها. لماذا هذه الفكرة أخذت تملأ رأسها وتلاحقها كيفما توجّهت؟ هل إن اليأس يتعلّق بالاساطير والخرافات؟ هل، في بأسه، يريد أن يحوّل الواقع أو يغيرّه سحرياً؟ ولكن هل تسأل الطبيب أولاً؟ "لا! لن أسأل أحداً ". ونامت تلك الليلة على أمل تنفيذ ما يدور في ذهنها منذ أيام. في اليوم التالي، وعند طلوع الفجر استفاقت ونفخت في الناي كالعادة، وهي تنظر إلى فادي بعد أن قامت بعملها الروتيني تجاهه. نظرت اليه طويلاً وشردت تفكّر. وحين سمعت الباب يُطرق كانت تقول لنفسها: "ربما قتلته بفعلتي هذه!" نفضت رأسها وذهبت إلى باب البيت لتفتحه. بو جلال كان الطارق.

-لقد أتيتك بتوت العليق كي تتذوّقي طعمه وتتأكدي أنه من أفخر أنواع التوت، قال وهو يقدّم لها صحناً صغيراً مليئاً بكبوش صغيرة داكنة اللون. لم تمدّ يدها، بل ابتسمت وأخذت تنظر إلى صحن التوت الممدود أمامها.

-ما بك، خذيه، قال لها، هل تشكّين بقولي؟ ثم أخذ عدداً من الكبوش وضعه في فمه مضغها جيداً وقال: إنها حقاً لذيذة، ألا تجربين؟ ضحكت حلم وأجابت:

-لا أشك أبداً بأقوالك، ولكني أضحك، فقط، لأنك سبقتني. كنت أنوي الذهاب، بعد الظهر، إلى أطراف الضيعة كي أقطف التوت و... ولكنها لم تتابع. صمتت، أخذت الصحن من يده وتمتمت: شكراً، على كل حال.

شعر بو جلال أنه بتسرّعه هذا، قد حرمها متعة النزهة والاكتشاف، فقال:

-كان علي أن أسألك أولاً... ولكن أرجوك، أعيدي لي التوت، واذهبي، بعد الظهر كما كنت قد قررت، لا أريد أن ... لم تتركه يكمل قوله، لأنها كانت تسبح بحالة شبه سحرية. أيقنت في تلك اللحظة أن ما ستقوم به هو عمل جيد، والدليل على ذلك، أن التوت أتاها إلى البيت كي يلغي كل تردّد في ذهنها.

-لا تكمل أرجوك. أظن أنك قمت بالعمل الامثل، وأنا أشكرك من كل قلبي. أخذت بعض التوت وأكلته ثم قالت بصوتٍ عالٍ: حقاً إنه لذيذ!

ذهب بو جلال وتركها لتلبكها وتخبّطها. "ماذا سأفعل الآن؟ هل أنفّذ؟" وضعت صحن التوت في المطبخ وعادت الى الصالون حيث تمددت على مقعدها وأخذت تفكّر: "ربما أسأت إليه بهذه الطريقة. وإذا مات؟ أكون قد قتلته بيدي... على كل حال إنه شبه ميت الآن وحالته لا تتحسن أبداً، بل على العكس، فإنه يهزل وهو في السرير وأراه يذوب أمامي..." نهضت بسرعة وصرخت: "سأنقذ، وإن قتل ساقتل نفسي وأرتاح من هذا العذاب وأنهي قصة، عليها أن تنتهي!" ثم

استدركت: "تنتهي وينعم وفيق بما هو لفادي هكذا من دون تعب ولا توبيخ ضمير؟ لا! لن أقتل نفسي. بل ساعود إلى وفيق لأنكّد عليه عيشه، سأعود لأمارس الجنس مع كل عابر طريق مع كلّ أصدقاء وفيق وزواره، وأضع شرفه في التراب، سأعذّبه وأثأر منه، سأقتله بكل بساطة وأرتاح منه! نعم، ثم أقتل نفسي..." صمتت قليلاً ثم تساءلت: "هل أبحث عن راحتي أنا؟ هل يئست إلى هذه الدرجة كي أحاول تسريع القدر؟ وما هو الذنب الذي اقترفته كي... كان عليّ أن أهجر ذلك القصر حي اكتشفت أسراره المخجلة... حين دخلت الست عفاف الى الحمام وطلبت مني أن أداعب بلساني حلمات ثدييها وأسفل بطنها، ولكنها كانت تفعل الشيء نفسه معي وتُشعرني، كما أشعرها باللذة. والسيد وجيه، كان عليّ أن أصفعه يوم داعب جسدي بيديه وهو يقبلّني على ثغري ويأمرني بأن أمسك عضوه و... حين قذف ذلك السائل على يدي. لم أفكر لحظتها بصفعه. كنت، أنا أيضاً، أنتشي بين يديه. فكّرت يومها بالهرب، لماذا لم ِأنفذ، هل ذنبي هو أنني لم أنفذ الهرب وأنقذ نفسي؟ ربما! ولكن حين فكّرت بالهرب لم أرَ أمامي إلا صورة جوزيت في ذلك الميتم، صورة تلك المرأة التي أيقظت في جسدي أول شعور بالمتعة الجنسية. هذه هي الصورة التي جعلتين أعدل عن تنفيذ قراري. هل هذا صحيح؟ لماذا لم أفكر يومها بحل ثالث غير بيت السيد وجيه والميتم. ولماذا لم أفكر بكسب عيشي بعرق جبيني؟ اخترت يومها الحل الاسهل، هذا هو الذنب الذي أكفّر عنه الآن. ولكني كنت أحب بشّار وهذا هو الامر منعني من التفكير بحل ثالث. بقيت في ذلك البيت لأن بشّار كان أملي بالانقاذ، أملي بالحياة لأنه الوحيد الذي كان يعاملني ككائن بشري له مشاعره وأحاسيسه وحريته. كنت أتحمل كل الوساخات كي أكون له في النهاية حين ينهي دروسه ويصبح قادراً على الاستقلال... ولو بقي بشّار لكنت غفرت لنفسي كي ذلك الماضي، لكنت نسيته تماماً، لكنت برّأت منه لأنه كان مفروضاً عليّ وكنت فيه مسلوبة الارادة... أما الآن، فما لم أغفره لنفسي هو زواجي بوفيق. لم اشعر يوماً بالاستلاب إلا معه. وفي هذا الشعور كنت أراقبه يشتري جسدي قطعة قطعة." وأخذت تتذكرّه، يضع الخواتم في أصابعها ويتأملها، يتأمل ثروته من خلالها. "كنت أشعر بأن أصابعي أنفصلت عن جسدي لتصبح ملكه"، ثم رأته يطوّق عنقها بعقد من الماس، يبتعد قليلاً يتأملها ويقول: "ما أجمل رقبتك"... أو زندك أو رجليك أو ... "وهكذا كان جمالي يظهر له فجأة، لم يتغزل بي، يوماً، إلا وأنا مكسوّة بهداياه. وشعوري بالاستلاب لم يكن مجاناً، إذ إن الغبي كان يعبّر عن دواخله من دون خجل، كان يقول، مثلاً وهو يضع الحلي على جسدي: "هذا العنق أصبح لي الآن... أو هذا الزند أصبح لي الآن... أو ..." ولكنني كنت دائماً متأكدة أني ما زلت أحتفظ بأقسام من جسدي لم يستطع امتلاكها بعد، إلى ذلك اليوم الذي عاد فيه وفيق، يتبعه أحد مرافقيه حاملاً علبة كبيرة، وضعها في

الصالون وانصرف. دنا وفيق من العلبة وفتحها وسحب منها معطفاً من الفراء الذي لم ترَ عيني مثله ؛ معطفاً أبيض تزيّنه بعض البقع السود. سمعته يقول: إنه هدية عيد زواجنا الثاني، فهو من نوع... ، ما عدت اذكر الآن اسمه، إنه أثمن أنواع الفراء في العالم، لا يرتديه إلا الملوك والأمراء. سحرني ذلك المعطف حيث وضعه وفيق على كتفي. نظرت إلى المرآة، وفجأة تلاقيت مع ذاتي، ولكن هذا اللقاء لم يدم، إذ إقترب وفيق مني وطوقّني، من خلف بذراعيه، قبّلني على شعري، ثم أتى بعلبة المجوهرات وضعها أمامي وقال: "البسي كل هذه القطع الجميلة سنخرج إلى المطعم... لقد دعوت كل الأصحاب، ستكونين الملكة بهذا المعطف وهذه..." ونسيت نفسي وزيّنت كل إصبع من أصابعي العشرة بخاتم وملأت ذراعي بالأساور واخترت أضخم عقد لعنقي، وأقرطاً كلها من الماس والأحجار الكريمة لأذني... كنت كشجرة الميلاد التي تشعّ بكل الالوان. قمت بهذا العمل التزييني بعد أن انتهت الاختصاصية من تسريع شعري وتبريج وجهي. حين انتهيت من التنكر هذا انتصبت والبسني وفيق المعطف واستدرت مجدداً نحو المرآة التي عكست أمامي صورة إمرأة لا أعرفها، إمرأة أخرى. أخذت أبحث عن صورتي ، عن ذاتي، لم أجدها، دنوت من المرآة أكثر وتفحصّت وجهي ، واستعصت عليّ معرفته، كان جميلاً جداً، فأخذت باللعبة إذ أعجبت بتلك الصورة أمامي. كان وفيق يتأملني وهو، حتماً، لا يراني، بل يرى أثر أمواله عليّ وفعل ثروته في تحويلي إلى صنم، إلى تمثال للعرض. ابتسم وهو يقترب مني مبدياً اعجابه، ثم قال: "الآن سنخرج، السيارة جاهزة" وسمعت نفسي أجيبه: نعم سنخرج... لم أسمع نفسي، بل سمعت صوتاً يقول: سنخرج، صوتاً غير صوتي، صوتاً هو صدى كل هذه الاقنعة التي وضعت فوق وجهي الحقيقي وصوتي الحقيقي. نظرت إلى الساعة وإذ بها تشير إلى التاسعة مساءً، وانتبهت إلى أني نسيت فادي وداوء فادي إذ ان عملية التحضير تلك كانت قد دامت أكثر من ثلاث ساعات. كنت قرب الباب، أهمّ بالخروج حين نظرت إلى الداخل ورأيت أمامي حلم بوجهها الطبيعي، حلم جالسة تهزّ رأسها وتقول:"فادي! لقد نسيتْ هذه العاهرة ابنها". حينها حدث الانفجار في داخلي صرخت بوجه وفيق: "إني لست دمية. لست آلة، لست أداة لعرض ثروتك، لست لك". وذلك المعطف الذي كان يغطي كل جسدي، شعرت به، في تلك اللحظة أنه الشيء الذي تم به استلابي كلياً، خلعته عنيّ بحركة عصبية ورميته بوجه وفيق، ثم خلعت الحلى التي تزينني قطعة قطعة وأخذت أقذف بها وفيق قائلة: "هذا العنق لي أنا، وهذه اليد لي أنا وهذه... ارميه بالذهب المرصّع وأراه يتضاءل أمامي إلى إن إختفى كليّاً، لم أعد أرى منه إلا صوته الذي كان يردّد "له جُننت؟ هل جُننت؟"

"وأنا اليوم، مع ابني فادي، سأقوم بعمل جنوني ثانٍ. فإن نجحت سأتمكن ن الثأر من كل الماضي. وإن فشلت؟... فكل الماضي فشل!" حزمت أمرها وتوجّهت إلى المطبخ، أخذت صحن التون وأفرغته في مصفاة ووضعت تحتها صحناً عميقاً، وأخذت تنفض التوت في المصفاة وما هي إلا دقائق حتى أخذ يقطر من ثقوب المصفاة سائل كالحبر واستمرت حلم بنفض التوت وعرصه بواسطة ملعقة تضغط بها على الكبوش داخل المصفاة، حتى تحوّلت القطرات إلى خيط رفيع متواصل من الحبر الذي أخذ يعلو في الصحن الأبيض.

كان الوقت ظهراً، دخلت إلى غرفة إبنها حاملة بيدها الصحن الابيض الذي يغطي أسفله السائل الحبري. وضعت الصحن على طاولة قرب سرير ابنها، أخذت حقنة جديدة، ملأتها بالسائل وأفرغتها في كيس المصل المعلّق فوق السرير. أصبح المصل أحمر بلون الدمّ القاني وخافت حلم وتساءلت هل تنزع كيس المصل من مكانه وتستبدل به كيساً جديداً؟ وقبل أن تقرّر ماذا ستفعل شعرت بأن موجة من الفرح تجتاحها. كان فرحاً هستيرياً. جلست قبالة ابنها تراقبه وتراقب تضاؤل المصل. كانت في حالتها تلك، شبه متأكدة من النتيجة؛ سيفتح عينيه ويناديها ستسمع صوته، ثم سينهض من السرير ويمشي و... ومضت ساعات وحلم تحلم وفادي في ثباته الذي لم يتزحزح. كاد المصل أن ينفذ ودنا وقت الغروب. فتحت حلم النافذة وأخذت تنظر إلى الأفق إلى ذلك العليق العقيم الذي لا حياة فيه ولا دم فيه ولا... استدارت نحو ابنها، غيرّت له كيس الصل، وعند إختفاء آخر اشعة شمس اخذت الناي ونفخت فيه. عزفها، في تلك الامسية كان ترداد سؤال واحد: لماذا؟ لماذا؟ كان نوعاً من الاحتجاج العنيف، إحتجاج على القدر، إحتجاج على الحياة... وأتت النفخة الأخيرة نوعاً من التنهّد العميق، صرخة يأس كبير.

رمت الناي جانباً، أخذت حبة منّوم وتمدّدت على سريرها من دون أن تخلع ثيابها. غابت عن تلك الغرفة لترى نفسها في غرفتها القديمة في ذلك القصر حين دخل عليها رعد وخلع عنها ثيابها وأخذ يداعب جسدها ويتهيّج، وفجأة دخل بشّار وتعاركا وتضاربا وجُرحت في ذراعها. صرخت واستفاقت وهي تصرخ. تفحّصت جسدها وتمتمت: "يا إلهي هل يرافقني هذا الكابوس في صحوتي وفي نومي؟ أين المفر؟ ولكنها، تحت تأثير المنوم غابت من جديد لترى نفسها، هذه المرة، في أحضان بشّار. كان يقبّلها ويكلمها عن ابنها ويوصف لها جماله وشبهه بها. كان فادي طفلاً صغيراً، وضعاه في سيريره بعد أن أطعماه، وجلسا جنباً إلى جنب سعيدين. لكن فادي صرخ، ثم علا صراخه، فقفز بشّار إليه، حمله وأخذ يهدهده، وفادي يصرخ ويصرخ كأنه يتألم، وسمعته يقول: "آخ". وتلاشى كل شيء ووجدت نفسها في السرير. لكنها نهضت بسرعة لتتفقد فادي إذ مرّ في ذهنها

ومضة أمل تقول: رما كان فادي يصرخ فعلاً. حين دنت منه لم تجد إلا الصمت العادي الذي كاد يخرجها من ذاتها. نظرت إليه طويلاً وهي شاردة الذهن. وللحظة اعتقدت أن رأسه قد مال قليلاً نحو اليسار، اقتربت منه وتفحصّت الوضع جيداً وحاولت أن تقنع نفسها بأن ما تراه هو صحيح ودنت من وجه فادي أكثر لتتأكد ممّا تراه وأقنعت نفسها بأن ما تراه هو فعلاً حقيقي، فمسّدت على ذلك الرأس الصغير وأعادته إلى وضعه الطبيعي، ذلك الوضع الذي لم يتغيّر إلا بعيونها الحالمة. ونادت، نادت، لكن فادي لم يجب، فبكت وأدركت أن كل ما رأته تهيؤات لا تمتُّ إلى الواقع الأليم بصلة. ولكنها بعد أن تنصتّت إلى تنفّسه ودقّات قلبه، تأكدت أن وضعه بقي على حاله وهذا يعني أن تجربتها، التي لم تنجح، فهي على الأقل لم تفشل إذ أنها لم تغيّر شيئاً في الواقع. اطمأنت، اذا استطعنا القول ان بقا الحال على حاله هو افضل من الكارثة، وعادت إلى سريرها تنتظر، كعادتها الصباح، الذي بدوره، لن يغيّر شيئاً ، ولكنه يقصّر المسافة إلى الأمل الذي كان عليه أن يقترب مع مرور الوقت كما كانت تعتقد.

-42-

بو جلال الذي لم يسمع صوت الناي عند طلوع الشمس، استغرب الأمر، وبعد أن أنتظر أكثر من ساعة على شرفة بيته وهو يتنصّت علّه يسمع شيئاً، نفذ صبره وانشغل باله على أم فادي. "ربّما أصابها مكروه". هل يتفقّدها؟ لا زال الوقت باكراً لافتعال الزيارة. نظر إلى بيتها؛ النافذة مقفلة وهذا يعني، في أحسن الحالات، انها لا زالت نائمة. "ولكن ماذا يعني نومها إلى مثل هذا الوقت. من المؤكد أن الوضع غير طبيعي، لن أتأخر بعد، سأصعد إليها، لا أستيطع المكوث على هذه الحالة، ربّما كانت بحاجة إلى شيء!" خرج من بيته وهو يتمتم: "أمر غير طبيعي، ماذا يحدث؟" وصل إلى بيت جاره فارس. كان مع زوجته، على مصطبة بيتهما يشربان القهوة كعادتهما. من غير الممكن أن يصعد بو جلال السلم إلى بيت أم فادي من دون أن يصبّحهما وكلِّمهما. وحين انتبها، هما أيضاً، إلى انهما لم يسمعا صوت الناي اليوم، تركهما، بو جلال وصعد السلم. طرق بابها وفتحت له وهي تفرك عينيها. كانت، حقاً، لا تزال غارقة في النوم حين سمعت الباب يُطرق. وعبّر لها بو جلال عن قلقه فابتسمت وقالت إنها كانت متعبة. ولكنها كانت تعرف جيداً أن استغراقها في النوم حتى تلك الساعة هو دليل على يأسها. فما عادت تؤمن بمفعول صوت الناي، وهكذا ومن دون أن تفكر بالموضوع جدياً، كان لا وعيها يتصرّف عنها.

-أدخل، أرجوك، سنشرب القهوة معاً.

تركته في الصالون وتوجهّت نحو غرفتها لتغيّير ثيابها. وما أن قطعت عتبة الغرفة حتى سمعها، بو جلال، تصرخ كالمجنونة: فادي! فادي! فهرع إليها ووجدها منحنية فوق سرير ابنها وتردّد اسمه. وحين سألها بلهفة عمّا بها أجابته وهي تلطم وجهها: "لقد قتلته!" أبعدها بو جلال عن السرير ورأى الدم يخرج من أنف فادي ويسيل على خدّه وفمه حتى وسادته. لم يرتبك، بل ركض إلى النافذة، فتحها ونادى بصوت عالٍ: "جلال، جلال... تعال بسرعة".

عاينه جلال، لم يكن متشائماً جداً، ولكنه قرّر نقله بسرعة إلى المستشفى. وقبل أن يخرج من البيت كان أهل الضيعة كلهم قد علموا بالأمر. أدخل فادي إلى غرفة في مستشفى الضيعة حيث باشر جلال، الذي تجمّع بعض الاطباء حوله، بإجراء بعض الفحوصات والصور له، وحلم تنتظر في الخارج وقد أحاط بها أهالي الضيعة. واختلف الأطباء في آرائهم؛ فمنهم من يرى ضرورة إجراء عملية سريعة ومنهم من يقترح نقله إلى العاصمة حيث المستشفيات أكثر تطوراً وتأهيلاً. لكن الدكتور جلال، وهو الجرّاح الماهر، الذي يعمل في أحد أهم مستشفيات العاصمة، حسم الأمر وقرر أن ينقل فادي إلى العاصمة، إلى ذلك المستشفى الذي يعمل فيه، وشرح لزملائه رأيه قائلاً: "إن الدم الذي ينزف من أنف فادي هو دليل على إنفجار في أحد الأوعية الدموية في الدماغ وهذا يستدعي عملية دقيقة. ولكنه تابع من التفاؤل: علينا أن نقتنص الفرصة، فلو كان النزيف داخلياً لما كنا علمنا بشيء وربّما كان فادي قد ..." ومن دون أن ينتظر أجوبتهم أو تعليقاتهم، خرج إلى خيث حلم وأخبرها عن تقديراته وبأن نقل فادي إلى العاصمة أمر ضروري ومستعجل. وهي التي، في تلك الساعة لم تستطع إتخاذ أي قرار، سلّمت أمرها إلى الدكتور جلال الذي طلب إحضار سيارة إسعاف حيث ركّز فيها فادي مع مصله وكل أدويته. ثم طلب من أبيه أن يتوجّه إلى العاصمة مع تذكرة هوية الطفل لكي يُعلم المستشفى بالأمر ويُستقبل من دون تأخير. قال ذلك بعد أن أخذ الأوراق الثبوتية من حلم، التي أخرجتها من حقيبتها من دون تردّد أو تفكير. وتابع: "إن وصلتم قبلي فهذه الأوراق ضرورية للمستشفى، وإذا وصلت أنا قبلكم، فلا حاجة لي بهذه الاوراق، أُدخله من دونها، ولهذا السبب، من الأفضل أن تظل معك". أنهى كلامه وصعد إلى سيارة الاسعاف ولحقت به حلم تطلب منه أن تصعد إلى جانب ابنها، لكنه رفض طلبها وقال بحزم: أرجوك أتركني أتصرف، اذهبي أنت مع والدي في سيارة زميلي الدكتور ... فأنا وزملائي سنعتني به، لا تقلقي". كان لا يستطيع تحمُّل رؤية أم فادي في حالتها اليائسة تلك.

جلست حلم على المقعد الخلفي في سيارة الطبيب، الذي توجّه بسرعة، إلى جانبه بو جلال، نحو العاصمة. وانطلقت سيارة الاسعاف أيضاً وصوت صفّارتها المعروف يملأ الفضاء. وتحمّس عدد كبير من شبان الضيعة، فصعدوا إلى سياراتهم التي امتلأت بالأصحاب وتبعوهم وحين وصلوا إلى المستشفى، في العاصمة، كان الموكب كبيراً جداً ورأت حلم نفسها، من جديد محاطة بأهالي الضيعة الذين كانوا يحاولون التخفيف عنها وطمأنتها، لأن ثقتهم بالدكتور جلال لم تخب يوماً.

-43-

وحده، بو جلال، كان ينظر إلى حلم بصمت وعطف كبير.كانت في السيارة جامدة، رأسها بين يديها وهي تنظر إلى الأرض شاردة الذهن. نظر إليها بو جلال، بعد أن قرأ ما هو مكتوب في تذكرة هوية فادي. نظر إليها وأراد بلحظة أن يصرخ ويضمّها إلى قلبه ولكنه تمتم بصوت منخفض غير مسموع: "حلم الراعي... إبنة ريم!" ثم هزَّ برأسه وصمت من جديد يكفر ويستعيد ذكريات حلوة ويقول لنفسه: "كنت شبه متأكدة، فهذا الشبه الكبير بريم ... ! ولكن ما هذه الصدفة التي قذفت بها إلينا، إلى ضيعتنا؟ ولماذا اختارت هذه الضيعة من بيك كل الضيع الاخرى؟ ما هو الشيء الذي شدّها إلينا؟ هل هو طيف أبويها الذي لا زال يرفرف في أجواء ضيعتنا؟ هل هذا العليّق الذي سيّج الضيعة بعد مقتلهما؟ استدار، من جديد، نحو حلم، كانت في الوضع نفسه، تفكر بفادي وحالته، تفكر بحالها إن حصل سوء لفادي، تفكر بأنها ربّما فعلت خيراً حيت أتت إلى هذه الضيعة التي نادتها من بعيد، إنها لم تختر، كان قدرها أن تعود إلى حيث كان والداها، إلى حيث ماتا، إلى حيث رويا الأرض بدمائهما. رفعت رأسها وللحظة، تلاقى نظرها بنظر بو جلال الذي ابتسم لها بعد أن شعر أنها فهمته، لكن حلم لم تفهم شيئاً. لقد نسيت ماذا طُلب منها وماذا أعطت للدكتور جلال من أوراق. لم تستطع أن تردَّ على ابتسامته، بقي وجهها مغلقاً كأنها لا تراه. فما كان منه إلا أن قال بصوت رصين:" لا تخافي سيشفى إن شاء الله." هنا تدخّل الطبيب الذي كانت يقود السيارة وأخذ يشرح لهما إمكانية الشفاء، في شروط معيّنة. كان يتابع كلامه بكل حماسة، حين وصلوا إلى المستشفى في العاصمة ورأت حلم ابنها فادي ممدّداً على طاولة لها عجلات ويجرّها بعض الممرضين. لم ترَ جلال واستغربت الأمر ولكنها اطمأنت حين قيل لها إنه سبق فادي إلى غرفة العمليات كي يحضّرها ويحضّر نفسه.

واستمر بو جلال إليها بحنان وهي جالسة بين أهالي الضيعة في صالة المستشفى. نظر إليها طويلاً وشعر بأنه ما عاد يتحمل أكثر، فتقدّم نحوها وجلس بالقرب منها، أحاطها بذراعه وقال: "حلم يا ابنتي..." أدارت وجهها نحوه وابتسمت. لقد فهمت الآن كل شيء، فردَّ لها الابتسامة المعبّرة، ضمّها إليه وهو يتمتم " لا تخافي، لا تخافي"، فأرخت رأسها على كتفه لتفهمه إنها تعرف جيداً ما يدور في خاطره وصمتا للحظة، بعدها، نهض بو جلال وقال لها: "سأطلب لك فنجاناً من القهوة وآتيك بجريدة كي تتسلي". وقبل أن ينهي كلامه ركض أحد الشبان وأحضر القهوة وجريدة رماها أمام حلم التي كانت تقول: "أنا لا أتسلى!" ولكنها صمتت وتغيّر وجهها حين نظرت إلى الجريدة وتسمّر نظرها على إحدى الصور في الصفحة الأولى؛ إنها صورة وفيق وتحتها عنوان كبير: السيد وفيق... يعيد بناء القصر المهدّم، قصر بيت... وهو الآن في ورشة إعمار ضخمة لتحويل القصر القديم إلى ناطحة سحاب. (التفاصيل في الصفحة الثالثة). تجمّد الدم في عروقها وهي تردّد في داخلها: "الوغد يعتقد أن البيت له وبأنه يستطيع التصرف به على هواه لأنه يملك المال". ولكنّها لم تجرؤ على قلب الصفحة في الجريدة لكي تقرأ التفاصيل. شربت قهوتها بصمت. وأصبحت وحدها، وجهاً لوجه مع كرهها لهذا الرجل الذي ينعم بكلّ أملاك فادي وأجداده، فادي الذي يتخبّط الآن بين الحياة والموت. تنهّدت وتلفّتت حولها كأنها تبحث عن أحدٍ ما، كأنها ملّت الانتظار الطويل من دون اي خبر عن حالة فادي. نهضت من مكانها ونهض الجميع معها. ولكنها لماذا نهضت؟ فهي نفسها لم تعلم لماذا فعلت ولكنها أجهشت بالبكاء وصاحت: " يا إلهي لقد تأخروا! ماذا حلّ به؟" وأجابها بو جلال الذي كان يراقبها: "التأخير دليل خير، اجلسي... لا نستطيع عمل شيء... سننتظر جلال... " ولكي يخرجها من قلقها أخذ يتكلم بفخر عن مهارة جلال وعن الاشخاص الذين أنقذ جلال حياتهم و... أما هي فقد تركته ومشت نحو نافذة مفتوحة. أسندت ذراعيها على حافّتها وأخذت تنظر إلى البعيد. فجلس الآخرون وعيونهم عليها.

وفجأة وصل أحد الأطباء الذين رافقوا جلال في سيارة الاسعاف وقال: "نحتاج إلى دم من فئة... مَنْ من الشباب ينتمي دمه إلى هذه الفئة" فهبّ الشباب بسرعة وتبعوه. أما حلم التي استدارت نحو القاعة حين سمعت صوت الطبيب، تسمّرت في مكانها وكادت تفقد وعيها، وحين اقترب منها بو جلال الذي لاحظ انخطاف اللون من وجهها، سمعها تقول وهي شبه متلاشية: "هل هو في خطر ؟ ولماذا الدم؟" وعلى الرغم من جهله بحالة فادي، أخذ بو جلال يشجعها وهو يسندها ويقترب بها نحو مقعد حيث ارتمت وجلس بالقرب منها يكلمها بعبارات، هو نفسه، لا يدري مدى صحّتها. لم تكن حلم تصغي اليه. ولكن حين وقع نظرها من جديد، على الجريدة تمتمت: "سأقتله إن مات فادي!" وبو جلال الذي سمع هذا

القول دهش وتساءل: "هل ستقتل جلال؟ وما ذنبه" ولكنه لم يسألها شيئاً واعتقد أنها تهذي، فإنسان في مثل حالتها يقول كلاماً لا يفكّر به جيداً، يقوله لكي يعزي نفسه. ولكنها عادت وردّدت الجملة مرّات وهي تهزّ برأسها وتابعت بصوت واضح: "لن ينعم بهذا القصر وأنا حيّة!" وتأكد بو جلال من هذيانها، فضمّها إليه بعطف ولكنه عجز عن وجود أية كلمة تواسيها وتردّها إلى الواقع، فاستمر يضمها اليه من دون كلام، وهي صمتت بدورها لأنها انتبهت إلى نفسها وإلى ما قالته. بعد قليل توجهت إلى بو جلال تسأله، هل يعتقد بأن فادي سيشفى؟ فهزّ بو جلال برأسه وقال: أنا متأكد... ولكن الاتكال على الله". وكادت حلم تصرخ: وأين هذا الله وهل هو موجود وأين عدله و ... ولكنها خافت من التلفظ بهذه الافكار التي مرّت سريعاً في ذهنها، خافت من اظهار كفرها برأفة الله، خافت أن يعاقبها الله على جحدها، فكتمت غضبها وقالت: "الاتكال على الله!".

وعاد الشبان الذين تبرّعوا بالدم وشكرتهم حلم وشكرهم بو جلال على نخوتهم وعلى مجيئهم بشكل عفوي وراء فادي وأم فادي ورددّوا بكل اعتزاز : إننا نساعد الغريب إذا احتاج الينا، فكيف بإم فادي التي أصبحت منّا. كل دمائنا فدى أم فادي وفادي!" لم تستطع حلم تمالك اعصابها أمام حماستهم فتساقطت دموعها عل وجهها وتلعثم لسانها ورأت نفسها عاجزة عن التعبير عن مشاعرها نحوهم. فابتسمت وكانت تلك الابتسامة الغارقة بالدموع أبلغ من كل الكلام التي كانت تودّ التفوه به.

لكن الانتظار طال، وطال جداً، وحلم تتخبّط بين اليأس والأمل من جهة وبين الحقد على وفيق من جهة ثانية. إنتقلت من حالة إلى حالة. مرّات دة قبل أن يخطر في بالها أن تسامح وفيق إذا شفي فادي وأن تتركه يفعل ما يشاء من دون حقد. ولكنها ما لبثت أن تساءلت "وكيف لي أن أنذر هذا النذر؟ وماذا أملك كي أسامح؟ الامر يعود إلى فادي، فهو صاحب القرار في هذا الموضوع، هو صاحب القصر، هو ابن بشّار... ويجذبها الحاضر اليه وتتساءل: "ولكن أي بشّار وأين فادي الآن؟ وتمثل أمامها صورة فادي الغائب وتتابع: "لماذا ولدت أنا وماهي الحكمة، حكمتك يا الله من ايجادي، هل انت قاسٍ إلى هذه الدرجة كي تتلذّذ بعذاب مخلوقاتك؟ وعند هذه النقطة تدرك مدى كفرها، هي التي تربّت في ميتم علّمها محبة الله ورأفته وحلمه وعدله و... فيتوقف سيل أفكارها الكافرة وتقول: استغرف الله وتصمت لتعود من جديد إلى الدوامة نفسها وإلى الاسئلة نفسها التي توصلها إلى تنهيدة عميقة تنتهي بعبارة: "أستغرف الله".

-44-

أطلّ جلال فوقف الجميع وتوجّهوا نحوه. لكنّه اقترب من حلم وقال: "لقد أجرينا كل الفحوصات اللازمة وأحضرنا الدم بكمية كافية وقررنا أن نجري له عملية في الرأس ونطلب الآن موافقتك قبل أن نبدأ لأن العملية في غاية الخطورة، ولذلك لا نستطيع المباشرة بها من دون موافقتك،وعليك الاسراع في اتخاذ القرار، وفي حال الايجاب، عليك توقيع هذه الورقة". أخذت حلم الورقة من يده ومن دون أن تقرأها، سألت: " هل سيشفى إن... " وقبل أن تُنهي سؤالها أجابها الدكتور جلال: "إنها حظّه الوحيد كما نرى". فوقّعت حلم الورقة وأخذها جلال ثم نظر إلى الشباب وقال: ادعوا لنا بالتوفيق".

تركهم وغرقت حلم في ذاتها تتفحّص قرارها وتنظر اليه من كل الجهات: هل اتخذت القرار السليم؟ يبدو أن لا مفر منه، هل كان عليّ أن أتركه على حاله وانتظر، هل إن عصير التوت هو الذي سبب النزف، هل هو الذي حرّك كل وضع فادي؟" وسمعت بو جلال يقول لها: "حسناً فعلت يا حلم"، فظنّت أنه قرأ أفكارها وبأنه عرف بقصة عصير التوت، فاستغربت الامر وسألته "ماذا تقصد؟" وأجابها: "يجب أن تُجرى العملية، هذا ما فهمته من جلال. إنها خطرة ولكن لا بدّ منها... وفي اسوأ الحالات ..." وانتفضت حلم:

-ماذا في أسوأ الحالات؟ هل سيموت؟

-لا! بل ربما عاد إلى ما كان عليه، هذا إذا فشلت العملية ولكنها لن تفشل، أنا متأكد.

نسيت حلم موضوع عصير التوت، أسندت رأسها على ظهر المقعد وأغمضت عينيها. ظنّ بو جلال أنها تنام، أخذ الجريدة وحاول أن يقرأ، لكن حلم، التي سمعت خشخشة أوراق الجريدة، فتحت عينيها، من دون أن تتحرك، وأخذت تنظر إليها من بعيد. قلَبَ بو جلال الورقة الأولى وظهرت الصفحة الثالثة مع صورة كبيرة للقصر المهدّم وفي داخل حديقته آليات ضخمة وورشة عمّال يهدمون ما تبقّى منه، قبل إعماره من جديد على شكل برج عالٍ من الاسمنت المسلّح والنوافذ الزجاجية العريضة... لم تكمل حلم قراءتها، إذ ما كان عليها أن تتخيّل ذلك البرج، فالصورة الآن أمامها؛ من جهة صورة القصر القديم والذي تحاول الآلات القضاء على ما تبقّى منه ومن أساساته، ومن جهة ثانية صورة المخطّط البرج الذي سيتحول إليه القصر واجنحته المتناثرة في حديقته والتي كانت تضجّ بالزوار والضيوف حين كان القصر في عزّه، وتابعت حلم القراءة: "سيُجرف كل شيء ما عدا،في الوقت الحاضر، الجناح الذي تشغله السيدة عفاف".

والست عفاف التي غابت عن ذهن حلم كل هذه الفترة، انتصبت أمامها لتذكرّها بأنها هي الوحيدة التي بقيت في القصر بعد أن احتله وفيق ونقل السيد وجيه إلى مصح عقلي؛ بقيت في جناحها ورفضت الخروج وتسامح معها السيد وفيق لأن أم سبع طلبت منه ذلك. وبعد فترة أتت الست عفاف ببعض أقاربها وأصحابها ومن جديد طلبت أمّ سبع من وفيق أن يغض النظر. لكنهم أصبحوا كثر وأحتلّوا جناحاً آخر ووفيق صامت لا يتدخّل بشؤونهم . كان يرضخ لارادة أمّ سبع التي كلما أغاظها ذكرّته بأن ابنها هو الذي أعطاه آخر ورقة في لبعة "البوكر" في تلك الليلة المجنونة. فيصمت ويلبي كل رغباتها. وأمّ سبع قد استفادت من خراب بيت السيد وجيه وتبعثُّر أصحابه إما موتاً وإما هرباً، استقطبت كلّ الزوار من أصحاب المال الذين كانوا أصلاً يأمّون بيت السيد وجيه، أصبحت هي صاحبة القرار في كل ما يتعلق بشؤون ذلك الحي وبكل ما يتعلق بشؤون وفيق، "مسكين وفيق، هل يعتبر أن استملاك الارض وبالطريقة التي استملكها بها يعني استملاك التاريخ؟ فبأية ذاكرة سيدير شؤون تلك الارض؟ إنه دخيل على أرض قديمة وأصلية، أرض لها تاريخها، وأنا أعرف تاريخها، إنها أرض أجداد فادي وأرض أجداد أجداده، فكيف لطفيليّ، نبت فجأة، أن يمتلكها؟ ماذا سيقول عنها لأولاده، فكيف لطفيلي، نبت فجأة، أن يمتلكها؟ ماذا سيقول عنها لأولاده هو الذي لا يعرف شيئاً عنها؟ سكون هو وذريّته كنباتات عائمة على سطح الماء لا جذور لها تمتدّ إلى أعماق الأرض لترتفع أغصانها متحديّة الفضاء. ولكنه يهدم كل شيء، وأعرف الآن لماذا، يهدم لأنه جاهل، يعتقد أن الهدم سيلغي التاريخ وأن الاعمار الجديد سيوجد تاريخاً جديداً يبدأ منه وبه. ولكن إذا جذفنا ماله وثروته فماذا يبقى منه، وحتى مع ماله، من هو حتى يبدأ التاريخ به ومعه؟ هل تغيّرت المقاييس إلى هذه الدرجة، إلى درجة استبدال الزمن والتاريخ، بالمال؟ هل أصبحنا في زمن نساوي فيه ما نملك؟ ما هذا العهر وما هذا الاحتقار للانسان وامكاناته ووجوده وحياته؟ وحياة فادي أين أصبحت؟" نظرت إلى بو جلال الذي كان صامتاً بالقرب منها وسألته: "تأخروا، ماذا تعتقد؟ "كل خير" . أجابها بإيجاز وعادا إلى صمتهما.

كانت الصالة تعجّ بالشبان الجالسين والواقفين والذين يتمشون والذين يتحدثون بصوت منخفض. نظرت إليهم حلم، ولأول مرة، شعرت أنها ليست وحدها. ولكن ماذا يعني أن لا تكون وحدها في حال فقدت فادي؟ إن كل ما يربطها بهؤلاء الشبان هو فادي، وحالة فادي هي التي ستقرّر، في النهاية ماذا يعنون لها. ولكنها لم تستطع إنكار جميلهم وإنكار القوة التي تستمدّها من وجودهم معها. نسيت الماضي ومثل أمامها زمن لم تدرِ من أين أتى؛ رأت نفسها من جديد في ذلك القصر ومعها فادي الشاب. كبر فادي ورأته بين هؤلاء الشبان. تخيلّته معهم يتكلم

ويضحك، تخيلتّه يعيش، رأته أمامها فابتسمت قبل أن يلفّها اليأس من جديد؛ عاد الحاضر، أخذت رأسها بين يديها وأحنته نحو الارض كي لا يرى أحدٌ دموعها.

وبو جلال كاد يفقد صبره، لقد تأخروا فعلاً. ماذا يجري؟ ماذا يفعل جلال وأية مسؤولية تحملها؟ وماذا سيقول لحلم في حال فشل ابنه في عمله، وكيف سيواجهه هي التي سمعها منذ لحظات تقول بأنها ستقتله؟ نفض هذه الافكار من رأسه، نهض من مكانه وأخذ يتمشى وحده، يداه مشبوكتان خلف ظهره ونظره إلى الارض. لم يقترب منه احد من الشبان، كانوا يحترمونه جداً. صمتوا وأخذوا ينظرون إليه وهو يروح ويجيئ في الممشى الطويل. لم يجرؤ أحد على سؤاله عمّا به. أدركوا صعوبة الوضع، لكنه قطع الصمت وقال لهم وكأنه لا يرى حلم: "إنهم فعلاً تأخروا". وحين انتبه إلى حلم التي رفعت رأسها ونظرت إليه، تابع: "والتأخير دليل خير في اعتقادي ولهذا السبب... " طلّ جلال من بعيد وتحوّلت إليه كل العيون. كان متبعاً جداً حين وصل إليهم وهو يقول: "لقد انتهينا. ثم تقّدم إلى أن وصل إلى جانب حلم يتبعه بو جلال. ربت على كتفها وقال لها: " لقد أجرينا العملية، كانت صعبة، وعلينا الآن الانتظار كي نراقب نتائجها... فادي لا زال تحت تأثير البنج.. وأعتقد ان كل شيء على ما يرام؛ فوضعه جيد وصحته صلبة ومن المفروض أن يتجاوب جسده ايجابياً، ولكن علينا الانتظار... لقد قمنا بكل ما نستطيع القيام به... سنرى. أما الآن فسأرتاح لساعة، لأنني أنا الذي سيراقبه. وإن نجحت العملية كما أتصوّر، فهذا يُعتبر إنجازاً طبياً مهماً وعلينا تسجيله".

تركهم جلال، بعد هذا الكلام وانصرف للراحة ترافقه نظرات والده الفخورة. حين اختفى في آخر الممشى، استدار بو جلال نحو الشبان قائلاً: "نشكركم جداً... والآن عودوا إلى الضيعة، سأبقى أنا مع أمّ فادي". "سنعود غداً للاطمئنان". قالوا وهو يودّعون حلم ويتمنون كل خير لابنها.

-والآن أين فادي؟ سألت حلم بعد أن أصبحا وحدهما. هل أستطيع رؤيته؟ لم أسال الدكتور جلال... وعاد جلال مستعجلاً ووجّه كلامه إلى والده:

-لقد نسيت أن قول لك أن ترافق حلم إلى بيتنا. هل معك المفتاح؟ أنا نسيت كل مفاتيحي في الضيعة.

مدّ بو جلال يده إلى جيبه، أخرج رزمة مفاتيح، سحب من بينها واحداً وقال: "نعم معي المفتاح".

-إذا، إذهبا وارتاحا حتى الصباح، لقد تأخر الوقت. أنا سأبقى هنا.

-وأنا سأبقى هنا. قالت حلم، كيف تريدني أن أرتاح؟ وهل أستطيع أن أرتاح وفادي لا أعلم عن وضعه شيئاً؟

-لا! قال الدكتور بحزم، ستذهبين إلى البيت مع والدي، لأن وجودك هنا لا يقدّم لك إلا التعب، ففادي تحت المراقبة ولا تستطيعين رؤيته ولا البقاء معه... حين نعيده إلى غرفته تبقين إلى جانبه. قال ذلك وتوّقف بسرعة كي لا ينعش الأمل، الذي لم يتحقّق بعد، في داخل حلم. ولكنه اقترب منها، وضع يده على كتفها وقال: "لا تخافي، فأنا هنا. وإن جدّ أمر ما سأخبركما به فوراً.

-45-

رضخت حلم للواقع ورافقت بو جلال إلى بيت ابنه الذي لم يكن بعيداً عن المستشفى. جلست في الصالون ودخل بو جلال إلى المطبخ ليحضر طعاماً له ولها. لكنه لم يجد إلا بعض علب الطون والسردين والحمص و... فتح بعضها، وضعها في صحون صغيرة، وزعّها على طاولة المطبخ وخرج يدعو حلم التي رفضت أولاً ثم استجابت بعد أن أصرّ عليها قائلاً: "لا بد أن تأكلي شيئاً لكي تتمكني من الوقوف غداً، ثم إني لا أدعوك إلى وليمة... وتابع وهو يعتذر: حتى اننا سنأكل من دون خبز، لم انتبه إلى الموضوع... غداً كل شيء يتأمن...".

جلسا وجهاً لوجه وباشر هو بالاكل مشجعاً حلم أن تفعل مثله، ففعلت؛ وراحت تضع الطعام في فمها وتلوكه ببطء وهي شاردة في عالم آخر.

-كم تشبهين ريم! وخرجت حلم من عالمها البعيد، من دون دهشة، هزّت برأسها وأجابت.

-إني لا أعرفها، أنت أدرى.

تأكد بو جلال أن حدسه حين كانا في صالة المستشفى، كان صحيحاً وبالتالي فلا داعي للتوضيح عن كيفية اكتشاف اسمها وهويتها. فتجرأ وسألها عن حياتها. وهي، بكل بساطة، كأنها تتكلم مع ذاتها، روت له كل ماضيها، روته من دون انفعال وأنهت قصتها بحادثة عصير التوت... وطلع الفجر وهو يستمع إليها ويردّد من وقت لآخر: "غير معقول... غير معقول... ما هذا الجنون..." ولما انتبها إلى أن الشمس تشرق، نظر إليها وقرأ القلق في عينيها وهي تقول: "لم يتصل الدكتور جلال... أنا خائفة". لم يجبها، كان غارقاً في ذاته يكلّمها، يحاكمها أو يواسيها:" لو لم تعد حلم إلى ضيعتنا لما كان تغيّر شيء في حياتها، هل أن العلم بالشيء يغيّر

في طبيعته؟" وتابع منكسراً: "نعم فهو يتحوّل من نسيان إلى ذاكرة! ويا له من تحوّل لا يضاهيه تحول العدم إلى وجود! كانت حلم، وحتى الأمس توقظ في داخلي مشاعر الاعجاب والـ... أما الآن فلا أشعر إلاّ بالعطف البريء وبضرورة الحماية".

وخافت حلم من صمته، وأعادت كلامها فقال لها:

-سأتصل به، اطمئني، فالخبر السيء يصل بسرعة. أنا من جهتي مرتاح جداً. تركها وتوجّه نحو الهاتف. لحقت به ووقفت إلى جانبه وهو يطلب رقم المستشفى. وردّ جلال بعد فترة انتظار، وأسرعت نبضات قلب حلم.

-ما الجديد؟ سأل بو جلال.

-الجديد كله خير، أجاب جلال. ولكن علينا أن ننتظر بعد، فأنا لا أحب أن أتفاءل بسرعة، أين أم فادي- وأم فادي تسمع – أخبرها إن الوضع الآن جيد، ولكن لا تسرف في طمأنتها، ربما خبأ لنا الخط سوءاً. وهذا أمر يحدث في بعض الحالات. على كل حال سنبقيه تحت المراقبة أربعاً وعشرين ساعة أخرى، بعدها يصبح بإمكاننا إعطاء رأي واضح ونهائي.

-سنأتي، قال بو جلال قبل أن يقفل السمّاعة، وينظر إلى حلم التي كانت تعابير وجهها غير واضحة تماماً؛ فابتسامتها السطحية كانت تخفي قلقاً عميقاً. لم يقل لها شيئاً لأنه يعرف أنها سمعت كل كلام جلال، وهي، بدورها لم تسأل. وبعد صمت قصير شعر بضرورة الكلام فقال:

-الاطباء دائماً حذرون. وأنا أعرف جلال جيداً، فهو لا يطمئن إلا إذا كانت النتائج حسنة مئة بالمئة، ولكنه حين يقول إنها جيدة حتى الآن، كما سمعتِ، فهذا يعني أنه شبه متأكد من النتيجة... هيا بنا سنذهب... ثم انتبه إلى انهما لم يناما لحظة واحدة، فقال: "هل ترتاحين قليلاً قبل ذهابنا؟".

-وهل تعتقد أني أستطيع النوم؟

وصلا المستشفى الذي وصله، قبلهما، رجال ونساء وشبان من الضيعة. كانوا يملأون الصالة الكبيرة ويتساءلون في ما بينهم، حين أطلاّ وتراكضوا نحوهما. وحياهم بو جلال وقال: "عسى خير، سننتظر اليوم أيضاً". فصمت الجميع وعادوا إلى أماكنهم. فتوجّه بو جلال نحو مكتب وسأل الموظفة عن إمكانية رؤية الدكتور جلال فأجابته بسرعة بأن الدكتور جلال مشغول جداً وقد طلب منها الا تناديه إذا ما سئل عنه.

"مشغول؟ هل لا يستطيع مغادرة فادي ولو لحظة؟ ماذا يعني القول؟ هل ساءت حالته؟ الحمداللة لأن حلم لم تسمع ما قالته تلك المسؤولة؟" ووصل إلى قرب حلم وهو بهذه الحالة من الارتباك، لكنه افتعل الابتسامة، دنا منها وجلس إلى جانبها يملؤه شعور غريب بأنه مسؤول عنها. وحين سألته: "هل من جديد؟" قال : "لا". وصمت. وطال الصمت الذي كانت تقطعه، من وقت لآخر تنهّدات حلم التي تُخرج بو جلال من أفكاره الغارقة في تخبّطها بين الماضي والحاضر. كان يحاكم نفسه على رضوخه لطلب زوجته بإبعاد حلم ورميها في الميتم، ويحلّل أن عودة حلم إلى القرية هو دليل واضح على خطأه الماضي. ينظر إليها قليلاً ويعود إلى ذاته يحاسبها ويتّخذ القرارات المستقبلية التي ستساعده على الخروج من عقدة الذنب هذه التي رمته فيها حلم من دون أن تدري. يخرج من ذاته، يتأمل الشبّان حوله ويهّز برأسه: "سيلبّون طلبي حتماً، لن يخذلوني، سأعيد حلم إلى قصرها، ستكون سيدة القصر وسيدة القرار!"

كان لا يزال غائصاً في أحلامه المتفائلة حين أتى جلال وهو يبتسم. نهضت حلم بسرعة وركضت اليه، وقبل أن تفوه بأية كلمة قال:

-أستطيع الآن أن أطمئنك، ففادي يستجيب بشكل جيد وإذا استمر الوضع على حاله سننقله غداً إلى غرفة خاصة حيث يمكنك رؤيته والبقاء معه.

وما أن أنهى كلامه حتى دوى صوت الشبان بهتاف: "يعيش الدكتور جلال!" هتاف رافقته زغاريد النساء، وجلال يحيّي أهالي الضيعة ويشير لهم بأن يسكتوا، وهو بين ذراعي حلم التي تقبلّه وتشكره ودموعها تغطي وجهها. وقبل أن ينسحب ويعود إلى عمله اقترب منه بو جلال، ربت على كتفه، من دون كلام،كان فقط يبتسم، تلك الابتسامة العارمة بالفخر والاعتزاز. ثم التفت إلى الشبان الذين هزّوا جدران المستشفى بهتافهم وشكرهم، بعد أن كان ضمّ اليه حلم التي ارتمت عليه بعد ذهاب جلال وكأنها تتابع شكرها للشخص نفسه.

عادت حلم إلى مكانها وكان أحد الشبان قد أتاها بالقهوة. فشربتها وهي تبتسم وتبكي معاً. أرادت أن تعبّر عن فرحها ورأت نفسها عاجزة عن إيجاد الكلمات المناسبة، فتوجهت إلى بو جلال ورأت نفسها تقول: "هذه أول مرة أتذوق فيها طعم القهوة، إنها فعلاً لذيذة... أعذرني ولكني، لو ذقت العلقم، الآن، لوجدته عسلاً... كل ذلك بفضل الدكتور جلال... فأنا، حقاً عاجزة عن شكره..." وحاولت المتابعة لكن بو جلال قاطعها قائلاً: "إنه يقوم بواجبه كطبيب، فلا داعي للشكر... ولكن أقرّ بأنه طبيب ماهر! وأتاه صوت أحد الرجال:

-هذا الشبل من هذا الاسد يا بو جلال!

-حقاً، حقاً. ردّد الجميع.

وتزايد تفاؤل بو جلال بهم وتأكد أنهم سيلبّون طلبه، فتوّجه اليهم قائلاً، بعد أن شكرهم على ثقتهم به وبابنه:

-ارجوكم، الآن، أن تعودوا إلى الضيعة وإلى أعمالكم، فأمامنا مهمّات كبيرة...

تبادل أهالي الضيعة النظرات في ما بينهم وحاولوا الاستفهام عن تلك المهمات. فأجابهم بو جلال:

-سنبحث الموضوع لاحقاً... كنا دائماً يداً واحدة وسنبقى يداً واحدة فالاتفاق هو وحده الذي يحقّق لنا ما نريد.

وانصرف أهل الضيعة وهم يتساءلون عن المهّمات التي تكلم عليها بو جلال وأخذتهم تقديراتهم إلى تأويلات عديدة، كان أهمها أن جلال سيرشّح نقسه لمقعد نيابي في الدورة الآتية. وتحمّس الرجال والنساء والشبان لهذه الفكرة وأخذوا يبحثون الموضوع كأنه هو الموضوع، واتفقوا على تأييد ترشيحه، لأنه، حقاً، يستحق ذلك. هل كان ما توصلّوا إليه في تحليلاتهم هو، حقاً، ما يفكّر به بو جلال؟

عادا، في المساء إلى بيت بو جلال. كانت حلم شبه متلاشية، لقد حلّ عليها التعب بعد فترة التشنّج التي دامت أكثر من يومين. نصحها بو جلال بالنوم فامتثلت لنصيحته، دخلت إحدى الغرف، أغلقت الباب وتمدّدت على السرير تستعيد ماضيها كالعادة. لم يستمر طويلاً، هذا الماضي، في تداعياتها. كان الحاضر أقوى منه إذ جرّها إلى التخطيط للغد ولرؤية فادي الذي لم تجرؤ على الاستفسار أكثر عن حالته. واجتاحتها موجة من التشاؤم إذ فكرت بأن قول جلال عن استجابة فادي للعلاج يعني أنه لم يمت فقط. هل عاد إلى حالته السابقة، إلى غيابه؟ وتذكرّت الناي، هل ستعود إلى العزف صباحاً ومساءً بانتظار الفرج؟ نهضت من سريرها وخرجت إلى الصالون، كانت تأمل أن تجد بو جلال صاحياً كي تسأله رأيه، ربما بدّد مخاوفها. كان بو جلال، كما تمنّت، لا زال جالساً وبيده جريدة أمس وعلى الطاولة، أمامه، جريدة اليوم. نظر إليها مدهوشاً:

-هل لا زلت صاحية؟ هل أعطيك حبة منّوم؟

لم تجبه، جلست بالقرب منه، فرمى الجريدة من يده ونظر اليها كأنه ينتظر سؤالاً ما.وسألته. صمت قليلاً ثم أجابها،من دون اقتناع كليّ بما يقوله لانه لا يعرف الحقيقة:

-لا أظن أن جلال يكون متفائلاً إذا كانت النتيجة هي، فقط، إعادة فادي إلى ما كان عليه قبل العملية... أظن... بل أنا متأكد أن فادي تعافى كلياً.

-آمل ذلك. قالت حلم وهي تنهض لتعود إلى غرفتها. لم ترد الاستفسار المطوّل، حتى إنها لم ترد أن تنتبه إلى تردّد بو جلال. كم يختزل الانسان، من التفاصيل حين يبغي الوصول إلى غاية محدّدة! وحلم كانت تريد الشفاء الكلي لفادي، ولهذا السبب لم تلتقط من قول بو جلال إلا ما يدعم ويعزّز الارادة.

بقي بو جلال وحده في الصالون. عاد إلى الصحف يقرأها ويتأمل الصور ويستعيد رواية حلم في الامس. "إنها فعلاً رواية غريبة! لقد سمعنا وتابعنا هذه القصة التي خضت البلد بكامله... لم أكن أعلم ومن أين لي أن أعلم، أن حلم كانت القضية. لم يخطر ببالي، لحظة واحدة، أنها عاشت في تلك الكرخانة! وهذا الذي ينعم بالقصر الآن!" رفع الجريد من جديد، تأمل صورته جيداً، هزّ برأسه، وللحظة تخيلّه مع حلم في السرير، فإنتفض وسارع إلى خزانة الأدوية أخذ حبة منوّم، تلك التي اقترحها على حلم، واستلقى في مكانه حتى الصباح.

-46-

فتح فادي عينيه وابتسم وبكت حلم وهي تشدّ على أيدي جلال. اقتربت من ابنها، قبلتّه وهي تناديه بصوت منخفض؛ لقد أوصاها الدكتور جلال بأن الانفعال يضّر بفادي وبأن عليها أن تكتم مشاعرها أمامه فهو لا زال يعالج بالمهدئات.

إنصرف جلال وجلست حلم على كرسي قبالة ابنها والفرح يغمر قلبها. بو جلال ظلّ واقفاً يتأملها ترمي رأسها إلى الوراء وتتنفسّ بعمق.

-سأعود إلى الضيعة الآن، وفي المساء أكون هنا من جديد. وحين أجابته بأن لا داعي للعذاب، قبّلها على جبهتها وانصرف. وبقيت حلم تراقب ابنها يتعافى، يستفيق، ينظر إليها ويبتسم من دون كلام قبل أن يغرف في النوم ليعود من جديد، بعد فترة، يفتح عينيه ويبتسم و... "هل فقد النطق؟" كانت تتساءل مرعوبة. ولكنها كانت ترمي هذه الفكرة بعيداً عنها وتمسّد على وجه ابنها.

استمر الوضع هكذا ثلاثة ايام، بعدها سمعته يناديها قائلاً إنه جائع. ركضت حلم إلى الهاتف تطلب الدكتور جلال الذي أتى مسرعاً. ملهوفاً كان حين دخل

عليها يرافقه أحد الاطباء المساعدين. ولكنه أمام ابتسامة حلم، إرتاح وسأل وأخبرته.

-سنأتيه حالاً بالطعام أجابها، كنت أنتظر هذه اللحظة! سنعطيه حساءً خفيفاً جداً لأن معدته لم تستقبل طعاماً منذ زمن طويل. ولأول مرة، منذ أكثر من شهرين. أخذت حلم معلقة صغيرة بيدها، ملأتها بحساء فاتر وتوجهّت بها نحو فم فادي الذي حين فتحه أمامها أشعرها بأنها تمتلك العالم بأكمله. وعاد فادي إلى النوم وعادت هي إلى ذاتها تفكر بماذا ستفعل بعد الآن. هل تعود إلى الضيعة؟ هل تحاول استرداد القصر من وفيق؟ وكيف؟ هل سيسمح لها ولابنها بالعودة، بعد أن رمته بكل الالفاظ وكل الشتائم؟ هل سيعترف بحقوق فادي هو الذي أنفق ماله للهدم وإعادة الإعمار، طبعاً، بعد أن أتخم أمّ سبع وأولادها وربما بو داوود ورجاله بالهدايا والتقديمات كي يسمحوا له القيام بما يفعله الآن؟

كانت الافكار تتراكض في رأس حلم، حين دخل بو جلال الغرفة وحسم الموضوع قائلاً:

-قريباً، إن شاء الله، سنعود بفادي إلى الضيعة. وأمام نظراتها المستفسرة تابع: كل شيء في وقته. نعود إلى الضيعة أولاً. ففادي سيحتاج إلى فترة نقاهة لا يؤمّنها له إلا هواء العلّيق في ضيعتنا التي أصبحت الآن ضيعته وضيعتك.

بعد أيام قليلة تركوا المستشفى كما أتوه محاطين بأهالي الضيعة الذين تجمّعوا لمواكبة فادي وأمّ فادي وجلال وبو جلال ودخلوا الضيعة كما يدخل الجيش المنتصر إلى قواعده. كانت النسوة على السطوح تزغرد وترمي الموكب بالارز والزهور حتى وصل إلى بيت بو فارس الذي كان مع زوجته، أمام الدار، يرحبّان بكل أهالي الضيعة الذين كانوا في تلك اللحظة ينتظرون العائدين. ترجّل فادي من السيارة، تسنده حلم وهي تبكي من الفرح أمام ما تراه عيناها. أما فادي فكان في حلم حقيقي؛ "ماذا يحدث ولماذا كل هذا الجمع؟ وأين أنا". نظر إلى أمه رآها تبكي وهي تردّ التحيّات والقبلات التي تدفّقت على خدّيها متبوعة بعبارة: "الحمدلله على السلامة". شدّ على يدها، فانحنت نحوه وسألها: "أمي أين نحن؟" "في البيت" أجابته بسرعة قبل أن تتركه لدهشته واستغرابه.

قبل أن يصعدا السلم برفقة جلال، توجّه هذا الاخير إلى الجمع في باحة الدار ورجاهم أن ينسحبوا لأن فادي بحاجة إلى الراحة. فإنصرفوا من دون كلام وعمّ الهدوء أرجاء الحيّ. وها هي حلم تستمع إلى إرشادات الدكتور جلال بعد أن وضعا فادي في السرير وأعطياه الدواء الذي كان جلال يحمله في حقيبته.

-47-

انصرف أهالي الضيعة، بعضهم إلى بيوتهم، وبعضهم الآخر دخل بيت بو جلال يهنؤونه بابنه ويبدون رأيهم في ترشيحه لمقعد النيابة وتأييدهم له في هذا المشروع. كان بو جلال يستمع اليهم ويضحك مدهوشاً هو الذي كان يخطّط لمشروع آخر يختلف تماماً عن مشروعهم. ولكنه أوضح لهم أنه لا يفكّر بالموضوع إطلاقاً، فأمر من هذا النوع، يتعلّق بجلال وحده، وهو لا يتدخل في قرارات ابنه ومشاريعه، وتابع:

-لكني أوّد أن أجد الحماسة إياها في مساعدتي على تنفيذ مشروعي أنا.

وعلت الأصوات تسأل عن مشروعه. فصمت. وأمام إلحاحهم قال: "سنرى قريباً ". وأجابوه: "نحن معك في كل قراراتك. فتابع:

-على كل حال، لا أستطيع أن أفعل شيئاً وحدي، فالاتكال عليكم" وتركهم لتكهنّاتهم من دون أن يُفصح عمّا يجول في باله.

وانقضت فترة النقاهة، التي خلالها كانت حلم تستقبل الزوار المهنئين وإلى جانبها بو جلال الذي كان يتصرّف وكأنه هو رب البيت؛ كان يذهب إلى السوق ويأتي بالحلوى والبن وبكل ما يُقدّم للضيافة في مثل تلك المناسبات، وحلم تبدي خجلها وتلبّكها أمام تصرفّاته التي ما عادت تدري كيف تردّ جميلها. وحين عبّرت له أخيراً عن مشاعرها أجابها بكل جدية:

-إنسي الآن كل شيء. كل الماضي انتهى وستعودين إلى القصر، مع ابنك فادي!

أخرستها الدهشة أمام جدّية بو جلال، فرفعت ذراعيها إلى فوق وتنهّدت تنهدّات عميقة وطويلة قرأ فيها بو جلال الشك والعجز... فانتفض واقفاً وقال:

-قد رتّبت كل شيء، ويوم الاثنين باكراً سنتوجّه إلى العاصمة، إلى قصر بيت... إلى قصر فادي، فهو من سيعيد إعماره.

كان يتكلّم وحلم تصغي إليه ولا تصدّق؛ فبو جلال يتلفّظ حرفياً بأمنياتها التي لم تجرؤ على البوح بها حتى أمام نفسها لأنها كانت عاجزة تماماً عن تحقيقها ولكنها خرجت من دهشتها بعد أن صمت بو جلال وسألت: "كيف وهل أستطيع؟"

وعادت إلى سكوتها. وبو جلال لم يجبها، فقط نظر إليها نظرة الواثق من نفسه وقبل أن ينصرف قال لها:

-استعدي، الاثنين صباحاً. كان هذا الكلام يوم السبت مساءً بعد ان تركهما الزوار ونام فادي. قال ذلك وانصرف وتركها لأفكارها المشككة، إذ أنها كانت تردّد: "هل صحيح ما سمعت ام أني أحلم؟".

في اليوم التالي، يوم الأحد، دعا بو جلال شبّان الضيعة وأفهمهم كل القضية. كانوا يعرفون قصة ذلك القصر، فتحمّسوا حين سمعوا من بو جلال أنها قصة أمّ فادي وقالوا: "لعيونك بو جلال سنعيد الحق إلى أصحابه و..." وفي المساء ذهب إلى حلم يذكرّها بالموعد ويشرح لها خطته:

-نرافقك إلى القصر... تدخلين مع فادي، تأمرين ورش الاعمار بالتوقّف وتطلبين من وفيق الخروج. هذا هو دورك، وعلينا الباقي.

-هل هذا يعني أننا سنعيد العراك إلى ذلك البيت؟

-لا! لن يكون عراك، بل إسترداد حق... والمال لا يصمد أمام الحق... المال جبان، ينتشي صاحبه أمام الضعفاء والكلاب ولكنه يجبن أمام الحزم والقوة المسلحة بالحق... لقد استطاع وفيق أن يسلطن بفضل ماله لأنه اشترى بهذا المال أشخاصاً، هم بالفعل كلاب يزحفون أمامه للحصول على قطعة عظم يرميها لهم. وهؤلاء، عادة، لا يتمتّعون بالوفاء... سيتركونه، بل يخونونه في أول مناسبة. والمناسبة آتية!... المال، يا بنتي، لا يخلق علاقات صادقة، بل ينبت على جوانبه أتباع وأذناب، ومن يكون بهذه الصفات لا تهمّه الأخلاق ولا يهمّه الصدق وهؤلاء الاشخاص المدَّاحون المستفيدون كانوا موجودين في كل العصور، في كل البلاطات وفي كل الامكنة ولكنهم، كانوا دائماً يسقطون بسرعة ويلفظهم التاريخ لأنهم، أصلاً، من دون جذور... وحين أنتبه إلى نفسه يطيل الشرح وصوته يعلو كأنه يخطب في جمهور، صمت فجأة ثم استعاد ابتسامته الأبوية وقال:

-على كل حال، فنحن لا نخسر شيئاً. فإن انتصرنا، عاد الحق إلى أصحابه وإن فشلنا، عدت مع فادي إلى هنا وعشت معنا، ألم تعجبك الحياة في ضيعتنا؟ وقبل أن تجيبه ردّد بإندفاع: لن نفشل، لن نفشل. وكأنه يرفض الهزيمة التي يكون قد أوحى بها كلامه الأخير.

قبل النوم استفقدت حلم ابنها الذي كان صاحياً في سريره. جلست بالقرب منه وسألها، أين هم ومن هم هؤلاء الناس الذين توافدوا إلى هذا البيت ولمن هذا البيت و... كانت حلم تسمع أسئلته ولا تجيب، وبماذا تجيب طفلاً في عمره؟ ولكنها

حاولت أن تسأله، بدورها لكي تتعرّف إلى حسن أداء ذاكرته؛ أعادته إلى طفولته الأولى. إلى ذراعي بشّار إلى ... كانت ذكرياته هشّة جداً كأنه يحاول رؤية صورٍ ترسمها أمه بكلامها، فقط صور من وحي مخيلته الآنية. تجلس في سريره وحدّق بوجه أمه، وانتاب حلم شعور غامض، بأنه لا يذكرها، فضمّته إلى صدرها وهي تردّد حبيبي، حبيبي تلك الكلمة التي طالما ردّدتها له في السابق، فاسترخى على كتفها وقال:

-أمي، إذا أردت الصحيح... لا أذكر إلا صوت موسيقى، لا أعرف مصدرها ومن كان يعزفها... لا أذكرها جيداً لكني... ما عدت أسمعها الآن.

أشارت حلم إلى الناي قرب السرير وقالت: "إنه صوت الناي يا حبيبي..." ثم أعادت إبنها إلى وضعه السابق وطلبت منه أن ينام. وحين اطمأنت على نومه ذهبت إلى بيت بو جلال تسأل الدكتور عن هواجسها حول ذاكرة فادي، لكنه طمأنها قائلاً:

-فادي، حتماً لا يذكر طفولته الأولى ولا يذكر أباه الذي فقده وهو لم يبلغ الثانية من عمره بعد... لا! كل شيء طبيعي ولا داعي للقلق. إطمأنت وعادت إلى شقّتها تستعدّ للغد.

أنهت تحضيراتها وجلست تفكّر.

-48-

أتى الغد، واخترقت العاصمة مظاهرة صامتة غير مسلّحة، مظاهرة سلميّة سلاحها الوحيد العزيمة والحق. اخترقت المدينة متوجهة إلى القصر المهدّم، كما كان يسمّى في ذلك الوقت.

دخلت حلم وفادي القصر، أولاً، وتبعها النساء والرجال والشبان. وصُعق وفيق الذي كان في إحدى الغرف التي حوّلها إلى مكتب لأعماله. كان ينظر إليهم ولا يصدّق ما يرى. وقف وحاول استقبالهم كما يستقبل الوفود الزاحفة إليه عادة لتلملم ما يرميه لها. لكنه استغرب صمتهم وهم يسيرون وراء حلم التي وصلت إلى الحديقة وصرخت بصوت عالٍ: "أوقفوا الهدم وانسحبوا". وهدأت الآلات جميعها وتجمَّد العمال وعمّ السكون المكان وسُمع صوت وفيق يقول من بعيد: "أهلاً بحلم في بيتها". وحين سمعت حلم اسمها استدارت نحو وفيق؛ رأسها مرفوع، كأن قوة هائلة تملكتها وقالت: "وأنت أخرج من بيت فادي". عبق وجه وفيق ونادى أمّ سبع

وتسمّر مكانه، لا يدري ماذا يفعل. لكن أمّ سبع لم تجب، وأولادها الذين تراكضوا ليروا ماذا يحصل، تراجعوا لأن الأمر لا يعنيهم؛ دُهشوا من قوّة حلم وموقفها. لا شيء يشلّ الخصم كالعزيمة الصادقة المبنية على الحق. وعلا صوت حلم:

-ماذا تنتظر؟ ألم تفهم بعد؟ خذ آلياتك ومالك وورشك وانصرف.

كان بو جلال بالقرب من حلم وفادي يُمسك بأطراف فستانها من دون أن يفهم شيئاً، والشبان رهن إشارة من بو جلال للإنقضاض على وفيق إن حاول التمرّد. وفهم وفيق الوضع وتساءل للحظة عن كل الرجال الذين اشتراهم بماله وكيف أنهم لم يتراكضوا لنصرته. لعنهم في سرّه وشدّ على أسنانه، أغلق ملفه الذي كان لا يزال مفتوحاً أمامه على المكتب، حمله تحت إبطه وانصرف تتبعه الآليات الضخمة التي كانت منذ لحظات تملأ الحديقة بعجقتها وأصواتها وغبارها.

توجّه بو جلال إلى حلم وقال:

-كنت واثقاً من النتيجة، فمن ليس له جذور في التراب، لا يدافع عن هذا التراب ومن ليس له ذاكرة وماضٍ يصعقه الحاضر ويتهافت أمام قوّة الزمن... الزمن هو الحقيقة الوحيدة في هذا الوجود والزمن لا تصنعه العملة الخضراء مهما فعلت ومهما تذاكى أصحابها.

-49-

أصبح أهالي تلّة العلّيق يداً واحدة في إعادة بناء ذلك القصر الذي بدأ يسترجع وجوده. وشاركتهم حلم في العمل إذ كانت تصف لهم المعالم القديمة وهم ينفّذون.

وحين انتهى العمل أعادت حلم السيد وجيه إلى البيت وبنت له ولزوجته جناحاً خاصاً في إحدى زوايا الحديقة. والست عفاف التي تلاقت من جديد مع زوجها كانت إمرأة مختلفة؛ إمرأة ثالثة بحسب رأي حلم. لقد تخلّت الست عفاف عن شخصيتها الأولى التي استقبلت بها حلم- ربما كان العمر، هنا هو المؤثر الفعال في تغيّرها- وتخلّت عن الشخصية الثانية التي كانتها بعد عودة بشّار وحلم وفادي إلى البيت: خلعت حجابها، ارتدت ثياباً عادية ووجهاً عادياً وتصرفّات عاديّة- ربّما كان فشل التجربة والنضج هما العاملات المؤثران هنا- طلبت من أقاربها أن يعودوا إلى بيوتهم لتعيش مع زوجها وحفيدها. والسيد وجيه الذي أرهقته العزلة أصبح، هو أيضاً ناضجاً، يتكلّم بحكمة ورويّة. فقط عيناه بقيتا

محافظتين على نظراتهما الشهوانية التي، في تلك المرحلة، كانت قد أصبحت محبّبة وحنونة.

بعد أيام من الانتهاء من إعادة بناء القصر زار بو جلال الست أم فادي. كانت السيارة التي أقلّته من الضيعة مليئة بشتل العلّيق الذي زُرع بالقرب من السور. وأصبحت حلم تراقب نموّه الذي كان سريعاً. وبعد فترة رأت حلم نفسها في ذلك القصر وكأنها في ضيعة تلّة العلّيق. أصبح بيتها صورة مصغرّة عن تلك الضيعة الرمز.

ومع الوقت استتب الوضع تماماً واستطاعت حلم أن تسدّ الفجوة بين حديقتها وحديقة بو داوود، وسدّت أيضاً الفجوة بين حديقتها وحديقة أمّ سبع وأعادت بناء السور كما كان. وكبر فادي في ذلك الجو المسالم الهادئ. وكانت حلم تصطحبه كل صيف إلى تلّة العلّيق لكي: "يتعلّم من أهلها حسن المعاملة، ليتعلّم منهم التعايش ونبذ كل ما من شأنه أن يفرّق بين الناس". وفي الشتاء كانت حلم على اتصال دائم بدكتور جلال وأهل بيته ولم تترك مناسبة إلا عبرت فيها لهم عن شكرها وامتنانها. وأهالي تلّة العلّيق أصبحوا من ضيوفها الدائمين. أصبحوا حرّاسها وحرّاس بيتها الذي لم يد يجرؤ واحدٌ على اقتحامه.

وحين رزق الدكتور جلال بإبنته التي أسماها "ريم" نزولاً عند رغبة أبيه، بكت حلم من الفرح وهي تقبّل جلال وتفكّر بمشروع بعيد ربمّا حقق آمالها. في تلك الليلة عادوا جميعاً إلى بيت جلال بعد أن أطمأنوا على حالة زوجته عبد الولادة، كانت حلم جزلة ومرحة و"جميلة جداً" قال بو جلال، وهو يراقبها تروي قصة جنونها الذي دفعها إلى حقن فادي بعصير توت العلّيق. كان جلال يعرف هذه القصة التي رواها له والده حين كان فادي في المستشفى، والتي لم يكن لها دور إلا إذا أدخلت في عامل الصدفة، فأجابها مازحاً:

-لقد ذكرت ذلك في تقريري، ربّما أصبح عصير توت العلّيق علاجاً في المستقبل! وضحك الجميع ماعدا فادي الذي لم يكن يفهم شيئاً ممّا يدور حوله.

ولكن فادي الذي كان ينمو بسرعة، أصبح، "شاباً وسيماً " تقول حلم لأصحابها، وتتابع وهي في الضيعة على شرفة بيتها الذي قدّمه لها أهالي الضيعة، "وريم أيضاً صبيّة رائعة". ويدخل عليهم فادي برفقة ريم وتقبلّهما حلم وتردّد: "سنفرح منكما قريباً". ويخجل الشابان وتحمّر وجنتاهما وهما يتسارقان النظرات خلسة.

-50-

ليلة زفافهما جلست حلم مع ابنها فادي الذي أصبح طبيباً جراحاً يتدرّب عند جلال، وروت له قصّتها. وحين وصلت إلى مرحلة عزفها على الناي صباحاً ومساءً، قال لها: "أين هذا الناي الذي يشكل كلّ ذاكرتي البعيدة؟" نهضت حلم إلى غرفتها وأتت بالناي الذي قلّبه فادي بين يديه قبل أن يقبّله ويضمّه إلى صدره.

-51-

كان رضى الصغير، بين ألعابه يقلّبها، يفكّكها، ليكتشف أسرارها ثم يعيد تركيبها على هواه. لعبة واحدة استفزته، إذ أنه عجز عن فكها لتعرّف إلى مصدر الأصوات التي تخرج منها. ضاق صدره بها، فحملها بين يديه ورماها بعيداً. حين وصلت إلى الارض أصدرت نغماً يشبه آنّة الوجع، ظنّها تألمت من الصدمة، فدبّ على يديه وركبتيه لاسترجاعها وضمّها إلى إلعابه الأخرى. اقترب منها، وإذ بالأنة مستمرة. دهش لأمرها وأخذ يتأملها، وكبرت دهشته حين أخذ النغم يتقطع وكأنه عزف تقوم به أصابع خفيّة على ملامس ذلك البيانو الصغير. رفعه عن الارض وأدناه من أذنه؛ لم يسمع شيئاً بتلك الأذن، بينما ظلّت الاذن الثانية تسمع العزف. رمى اللعبة من جديد لـمّـا أدرك أن الصوت يأتي من الخارج. من يعزف في البيت؟ هل هو الراديو؟ خرج من غرفته وتنصّت. والداه خرجا منذ قليل، يعرف ذلك. وحدها جدّته العجوز بقيت معه. ترك ألعابه وعالمه وركض إلى غرفتها فتح بابها من دون استئذان ودخل. كانت جدّته، حلم، جالسة على مقعدها، غارقة في ذاتها لا تتحرّك.

-جدّتي ما هذا الصوت؟

-أي صوت عزيزي؟

-ألم تسمعي؟

-إنه صوت الناي يا حبيبي، هل تحب هذا النغم وتابعت بصمت، إنه ذاكرة والدك الوحيدة.

-نعم أحبه. هل تشتري لي ناياً؟

-سأشتري لك ما تريد. رفعت الناي عن ركبتيها وتمتمت: هذا الناي سيكون لك بعد موتي، ربّما كتبت به سيرة هذا المكان!

إقترب الطفل منها، قبلّته ورفعته إلى حضنها كما هي العادة بينهما وقالت له:

-سأقص عليك الآن حكاية الراعي وأبــ ...

لم يترك الطفل جدته تتابع قولها لأنه كان يعرف تلك القصة التي طالما سمعها منها؛ الراعي البطل، قاتل الذئب الذي كان يسطو على الخراف. فاستعجل قائلاً:

-لا! يا جدتي، إروي لي قصة أخرى.

-لا أذكر سواها الآن، يا حبيبي.

لم يعرف الطفل رضى، أية قصة هذه التي لا تذكر سواها جدته، فانخطف من حضنها وعاد إلى العابه. وظلّت حلم جالسة على كرسيها وهي تتأمل الناي وتستعيد تاريخها الذي مرّ كشريط سينمائي أمامها.

عادا من زيارتهما. فتحا الباب ودخلا. لم يسمعا صوتاً أو حركة. توجّها إلى غرفة رضى؛ كان جالساً وحده بين ألعابه. قبّلاه وسألاه عن جدّته، فأجابهما إنها في غرفتها. طرقا بابها، لم يجبهما أحد، فتحا الباب ودخلا؛ حلم على مقعدها، رأسها منحنٍ على صدرها والناي على ركبتيها. ناداها فادي، لم تجب واقترب منها وبعد ان ناداها مجدّداً غمرها بذراعيه وبكى.

حشد غفير، من المدينة وضيعة تلّة العلّيق، أمّ بيت الدكتور فادي يوم دفنها في الحديقة. كان يوماً حزيناً مثل اليوم الذي ودّعت فيه الضيعة بو جلال، بعد ولادة رضى بأشهر قليلة. يومها عادت حلم إلى البيت وعلّقت صورة بو جلال مع صور السيد وجيه والست عفاف ورعد وبشّار، على أحد جدران غرفتها.

بعد مراسم الدفن، بنى فادي ضريحاً فوق التراب الذي دفنت فيه أمه مع نايها. أبى يومها أن ترحل وحدها، وضع الناي في يدها قبل أن يغرمها التراب. وأصبح الضريح محجاً يزوره فادي كل صباح قبل طلوع الشمس. يركع بالقرب منه يسند رأسه إلى أحد جدرانه. يبزغ أول شعاع شمس، يُغمض عينيه، يستمع، لدقائق، إلى عزف الناي، ثم ينهض، ويبدأ نهاره.

-52-

طلع الفجر وحلم على كرسيها تحلم. ناداها فادي وطلب إليها أن تسمعه صوت الناي. تجمدّت للحظة قبل أن ترفض وتطلب منه أن ينهض لتلبسه ثيابه لأن

"هذا اليوم يومك يا بني" لكنه اصرّ على العزف فأخذت حلم الناي ونفخت فيه. تسمّر نظر فادي عليها وشعرت أنها ما عادت تستطيع التوقف عن العزف وكأن نظرات فادي سحرتها.

كانت حلم لا زالت تعزف على الناي حين قال جلال لأبيه: "ما كنتُ متخوفاً منه قد حصل! ستعود إلى سماع هذا العزف صباحاً ومساءً".

إنتهى في 1995/1/25